هدية
من المؤلف

تأمّلات في سورة البقرة

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
عام ١٤٢١ هـ

بقلم
حسن محمد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرمة

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
الرقم العام: ٢٣٧
الرقم الخاص:
تاريخ الورود:
١٤٢٠/١١/

طبع بإذن من إدارة المطبوعات بمكّة المكرمة
برقم ١٢/١٣٤٦ م
وتاريخ ١٤١٠/١٠/١٤ هـ

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .

بعونٍ من الله تعالى وفضل ، سبق لنا أن قمنا بالدّراسات المتأمّلة للسّور التّالية ، يوسف ، مريم ، يس ، الإسراء ، الفرقان ، العاديات ، النّازعات ، الحاقّة ، الرّعد ، محمّد ﷺ ، الفاتحة ، الأحزاب . وهذه الأعمال كلّها قد طبعت بفضل الله تعالى . وحينما تحوّلت الدّراسة إلى سورة الفاتحة بعد دراسة سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام كانت النّيّة متّجهةً لأن تسير الدّراسة بعد ذلك وفق التّرتيب التّوقيفيّ للسّور فى المصحف الشّريف ، ولكن شاء الله تعالى أن تتحوّل الدّراسة إلى سورة الأحزاب المدنيّة . وكانت الدّراسة التى عملت للمؤتمر العالمىّ الثّالث للسّيرة والسُّنّة النّبويّة المنعقد بقطر فى شهر محرّم عام ١٤٠٠ هـ وعنوان الدّراسة : غدر بنى قريظة ومعاملة النّبىّ ﷺ لهم نواةً للدّراسة المتأمّلة لسورة الأحزاب . ثمّ عادت الدّراسة محاولةً مراعاة الترتيب التّوقيفىّ للسّور ، وكان الشّروع فى الدّراسة المتأمّلة لسورة البقرة يوم الأربعاء ١٤٠١/١٠/٥ هـ الموافق ١٩٨١/٨/٥ م وبهذا تكون الدّراسة لسورة البقرة المدنيّة استغرقت زهاء ثمانى سنوات من بينها سنة تفرّغٍ علمىّ ، وخلال هذه السّنوات الثّمان من الانكباب على دراسة سورة البقرة تمّت دراساتٌ جانبيّة من بينها الأجزاء السّبعة من التّفسير البسيط للقرآن الكريم الّتى عملت تباعاً مواكبةً للمسابقة العالميّة لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره التى تعقدها فى مكّة المكرّمة سنويّاً وزارة الحجّ والأوقاف بالمملكة العربيّة السّعوديّة ، حيث إنّ المتسابقين فى الفرع الأوّل من فروع المسابقة المتعدّدة يتسابقون فى تفسير جزءٍ من القرآن الكريم يتغيّر على التّوالى سنويًّا ، إضافةً إلى التّسابق فى حفظ القرآن الكريم كاملاً .

والحقيقة أنّ الثّمانى سنوات الّتى انكببت فى أثنائها على هذه الدّراسة المتأمّلة وعنوانها : « تأملات فى سورة البقرة » ذكّرتنى بمثل قول القرطبىّ فى تفسيره رحمه الله رحمةً واسعة فى أثناء حديثه عن سورة البقرة : « تعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة وابنه عبد الله فى ثمانى سنين » وذكّرتنى بما تضمّنته المقدّمة الّتى كتبتها بتاريخ ١٤٠٤/١/٢٢ هـ للجزء الثّانى من التّفسير البسيط والّتى جاء فيها بشأن دراستى المتأمّلة لسورة البقرة : « لقد مرّ علىّ حتّى الآن ما يزيد على العامين وأنا أقرأ حول سورة البقرة ، ولمّا أخطّ كلمةً واحدةً فى دراستى المتأمّلة لسورة البقرة ، والسّبب فى ذلك يعود إلى كون المفسّرين ينزلون بثقلهم على سور أوّل المصحف الشّريف . ومعروفٌ أنّ سورة البقرة ثانى سور المصحف الشريف ، ثمّ إنّها أطول سور القرآن وما أكثر القصص والأحكام والمسائل الّتى تضمّنتها هذه السّور الكريمة . لكلّ ذلك كان نصيب سورة البقرة فى أعمال المفسّرين هو الموفور ، إذ يكاد يكون المجهود الّذى يبذل فى هذه السّورة الكريمة وعدد الصّفحات الّتى تسوّد قريباً من سبع أو ثمن المجهود الّذى يبذل فى تفسير القرآن الكريم كلّه ومجموع الصّفحات . وإذا كان تفسيرٌ كتفسير القرطبىّ وأبى حيّان وابن كثير يستنفد منّى قراءة زهاء العشر الصّفحات كلّ اليوم الّذى أتفرّغ فيه للعمل — وبسبب المشاغل قلّما يتحقّق لى ذلك التّفرّغ — فمن الطبيعىّ أن ينتهى حولان كاملان دون أن أفرغ بعد من قراءة ما ينبغى قراءته حول سورة البقرة » .

لقد كانت النّيّة متّجهةً لقراءة كلّ ما ينبغى قراءته بين يدى كتابة تأمّلات فى سورة البقرة وانتهيت إلى نتيجة حاسمة هى أنّ العمر كلّه ، والله تعالى وحده يعلم ما الّذى بقى منه ، لا يكفى لقراءة كلّ ما ينبغى قراءته فقرّرت أن أشرع فى الكتابة متوكّلاً على الله تعالى مزاوجاً بين القراءة للآية الكريمة الواحدة أو الآيات والكتابة فيها . وكان المقياس الّذى ارتضيته حدّاً للقراءة بشأن الآية الكريمة الواحدة أو الآيات أن أعتقد بأنّى انتهيت من فهم الآية الكريمة أو الآيات إلى الحدّ الّذى أستطيع أن أكتب معه تأملاتى بشأنها . ولولا فضل الله تعالى الّذى هدانى لهذا الضّابط ما انتهيت حتّى يوم النّاس هذا من قراءة بعض ما ينبغى قراءته بين يدى كتابة هذه التّأمّلات .

وعلى الرّغم من هذا الضّابط الّذى التزمته بالضّرورة بين يدى كتابة تأمّلات فى سورة

البقرة فإنّ عدد الصّفحات الّتى سوّدت فى هذه التّأملات لا تكاد تقلّ كثيراً عن مجموع الصّفحات الّتى حبّرت فى كتابة تأمّلات الاثنتى عشرة سورة السّابقة ولله تعالى وحده الفضل والمنّة . والله تعالى وحده لا شريك له هو الّذى يعلم السّورة التّالية الّتى ستكون ميداناً للتّأمّلات رغم أنّ النّيّة متّجهةٌ لدراسة السّور وفق ترتيبها فى المصحف الشّريف(١)

وهذه الدّراسة المتواضعة المتأمّلة لسورة البقرة الكريمة لا تختلف فى شيءٍ عن التّأمّلات السّابقة والّتى أعرف أنّ واحدةً منها هى تأمّلاتٌ فى سورة يس قلب القرآن طبع منها ما يزيد على المائة ألف نسخة . إنّ العناية كبيرةٌ ببيان أوجه الإعجاز مع العناية بتبيين التّرابط بين موضوعات السّورة وآيات الموضوع الواحد وجزئيّات الآية الواحدة . وبشأن الأحكام كان دورنا مقصوراً على الاقتباس من المصادر الموثوقة وبخاصّة تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى . وبشأن كلّ اقتباس دوّنّا مصدره أو مرجعه .

ولا أريد أن أشير إلى المجهود الّذى بذلت فى هذه التأملات فالله سبحانه وتعالى هو وحده الّذى يعلم ذلك ، وأتحوّل إلى تقرير ما دوّنته بين يدى كلّ التّأمّلات السّابقة بأنّى أشهد الله تعالى الّذى لا إلٰه إلاّ هو بأنّى لم أشأ لحظةً من اللّحظات أن أحمّل حرفاً واحداً من كتاب الله تعالى ما لا يحتمل ، ومن كان له على هذا العمل وأىّ عملٍ آخر أىّ ملاحظة فلا يتردّد فى إعلانها وتنبيهى — جزاه الله تعالى خيراً — عليها ، فالحقُّ أحقّ أن يتّبع .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبّله ، وألاّ يحرمنا من الأجر ، وأن يعفو عمّا بدر منّا من التّقصير إنّه سميعٌ مجيب .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ، ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ، ﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة
يوم الخميس ١٤٠٩/٣/١٠ هـ
الموافق ١٩٨٨/١٠/٢٠ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانيّة بجامعة أمّ القرى
بمكّة المكرّمة

---

(١) بفضل الله تعالى تمّت الدّراسة المتأمّلة لآل عمران والنّساء والمائدة .

تمهيـــد

بين يدى دراستنا المتأمّلة لسورة البقرة الكريمة نودّ أن نشير إلى بعض المسائل .

١ ــ سورة البقرة مدنيّةٌ نزلت فى مددٍ شتّى . وقيل : هى أوّل سورةٍ نزلت بالمدينة إلاّ قوله تعالى : واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . فإنّه آخر آيةٍ نزلت من السّماء . ونزلت يوم النّحر فى حجّة الوداع بمنى . وآيات الرّبا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن(١)

٢ ــ عدد آى سورة البقرة مائتان وثمانون وخمس وقيل ستّ . وقيل سبع(٢)

٣ ــ عدد كلمات سورة البقرة ستّة آلاف كلمة ومائتان وإحـدى وعشرون كلمة(٣)

٤ ــ عدد حروف سورة البقرة خمسةٌ وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف . والله أعلم(٤)

٥ ــ كان خالد بن معدان يسمّى البقرة فسطاط القرآن . قال بعض العلماء : وهى مشتملةٌ على ألف خبر وألف أمرٍ وألف نهى(٥)

٦ ــ فى موطّأ مالك أنّه بلغه أنّ عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وعن ابن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة فلمّا ختمها نحر جزوراً(٦)وفى موضع آخر قال القرطبى(٧) :« وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة ، وابنه عبد الله فى ثمانى سنين . كما تقدم » .

٧ ــ ما أكبر فضل هذه السّورة الكريمة ! روى مسلمٌ عن أبى أمامة الباهلىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اقرأوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة . وتركها حسرة .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٣٢ وانظر مثلا الإتقان ١/٤١ ، ٤٣ ، ٩٧ وتفسير ابن كثير ١/٣٥

(٢) الإتقان ١/٢٣٥ وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٥

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٥ (٤) تفسير ابن كثير ١/٣٥

(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٥ وانظر تفسير القرطبى ١٣٢

(٦) تفسير القرطبى ٣٤ (٧) تفسير القرطبىّ ١٣٢

ولا يستطيعها البطلة . قال معاوية : بلغنى أنّ البطلة السّحرة . وروى أيضاً عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إنّ الشّيطان ينفر (فى رواية يفرّ) من البيت الّذى تقرأ فيه سورة البقرة[١] وفى صحيح البستّى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ لكل شيءٍ سناماً وإنّ سنام القرآن سورة البقرة . ومن قرأها فى بيته ليلاً لم يدخل الشّيطان بيتَه ثلاث ليال . ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشّيطان بيته ثلاثة أيّام[٢] روى الإمام أحمد عن معقل بن يسار أنّ رسول الله ﷺ قال : البقرة سنام القرآن وذروته . نزل مع كلّ آيةٍ منها ثمانون ملكا واستخرجت : الله لا إلٰه الاّ هو الحىّ القيّوم ، من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة . ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجلٌ يريد الله والدّار الآخرة إلاّ غفر له واقرءوها على موتاكم . انفرد به أحمد[٣] وقد روى التّرمذىّ من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لكلّ شيءٍ سنام وإنّ سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيّدة آى القرآن آية الكرسىّ[٤] وروى الدّارمىّ من طريق الشّعبىّ قال : قال عبد الله بن مسعود : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلةٍ لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك اللّيلة . أربعٌ من أوّلها وآية الكرسىّ وآيتان بعدها . وثلاث آياتٍ من آخرها . وفى رواية : لم يقربه ولا أهله يومئذٍ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلاّ أفاق[٥] قال البخارىّ : وقال اللّيث : حدّثنى يزيد بن الهاد عن محمّد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال : بينما هو يقرأ من اللّيل سورة البقرة ـــ وفرسه مربوطةٌ عنده ـــ إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ثمّ قرأ فجالت الفرس فانصرف . وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلمّا أخذ رفع رأسه إلى السّماء حتّى ما يراها . فلمّا أصبح حدّث النّبىّ ﷺ فقال : اقرأ يا ابن حضير قال : قد أشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسى وانصرفت إليه فرفعت رأسى إلى السّماء فإذا مثل الظّلّة ، فيها أمثال المصابيح ،

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٣٢ وتفسير ابن كثير ١/٣٢ و ٣٤

(٢) تفسير القرطبىّ ١٣٢ وتفسير ابن كثير ١/٣٣

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٢

(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٢ (٥) تفسير ابن كثير ١/٣٢

فخرجت حتّى لا أراها قال : وتدرى ما ذاك . قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر النّاس إليها لا تتوارى منهم . وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلاّم فى كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن صالح ويحيى بن بكير عن اللّيث به . وقد روى من وجهٍ آخر عن أسيد بن حضير كما تقدّم والله أعلم . وقد وقع نحوٌ من هذا لثابت بن قيس بن شمّاس رضى الله عنه(١) .

وروى الإمام أحمد أنّ النّبىّ ﷺ قال : تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزّهراوان يظلاّن صاحبهما يوم القيامة كأنّهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ(٢) وروى عن النّواس بن سمعان الكلابىّ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول :يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الّذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد قال : كأنّهما غمامتان أو ظلّتان سوداوان بينهما شرق أو كأنّهما فِرْقان من طيرٍ صوافّ يحاجّان عن صاحبهما . وروى الحديث أيضاً مسلم والتّرمذىّ(٣)

وثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قرأ بالبقرة وآل عمران فى ركعة واحدة(٤)

وثبت فى الصّحيحين عن ابن مسعود أنّه رمى الجمرة من بطن الوادى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثمّ قال : هذا مقام الّذى أنزلت عليه سورة البقرة . أخرجاه(٥)

وعن عتبة بن مرثد قال : رأى النّبىّ ﷺ فى أصحابه تأخّراً(٦) فقال : يا أصحاب سورة البقرة لينشّطهم بذلك فجعلوا يُقْبلون من كلّ وجه . وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة ، جعل الصّحابة يفرّون لكثافة جيش بنى حنيفة ، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتّى فتح الله عليهم . رضى الله عن أصحاب

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٣

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٣ الزّهراوان : المنيرتان . والغيابة : ما أظلّك من فوقك . والفرق : القطعة من الشّىء . والصّوافّ : المصطفّة المتضامّة .تفسير ابن كثير ١/٣٤

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٤

(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٤

(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٥

(٦) جاء فى تفسير ابن كثير ١/٣٥: « وأظنّ هذا كان يوم حنين يوم ولّوا مدبرين » .

رسول الله أجمعين[١] .

٨ ــ جاء فى حديث أنس رضى الله عنه : كان الرّجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا[٢] .

٩ ــ عن عثمان وابن مسعود وأبىّ : أنّ رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتّى يتعلّموا ما فيها من العمل ، فيعلّمنا القرآن والعمل جميعاً . وعن أبى عبد الرّحمن السُّلمىّ قال : كنّا إذا تعلّمنا عشر آياتٍ من القرآن لم نتعلّم العشر الّتى بعدها حتّى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها[٣] .

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٥

(٢) الإتقان ١/٢٢٩

(٣) تفسير القرطبىّ ٣٤

الدّراسة المتأمّلة لسورة البقرة

[١]

الكتاب المعجز هدًى للمتّقين

الآيـات (١ ــ ٥)

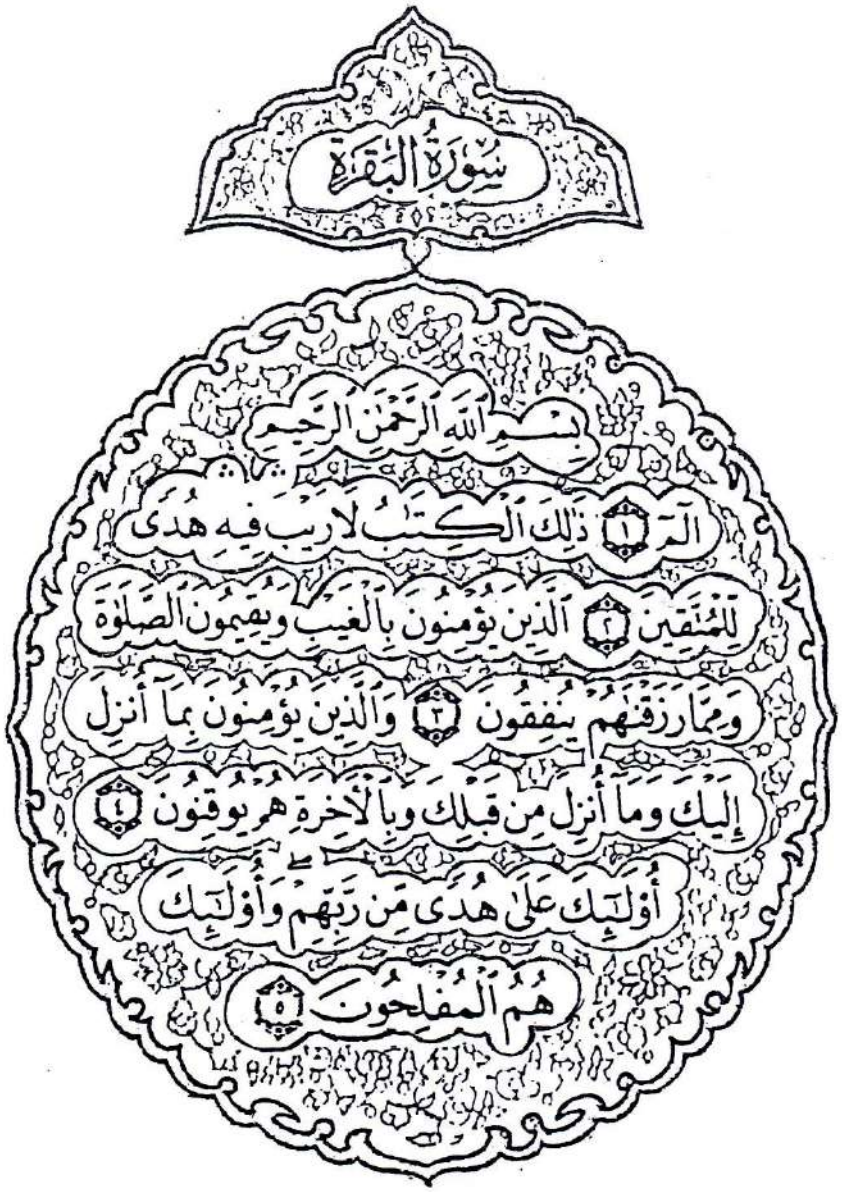
سورة البقرة
بسم الله الرحمن الرحيم
الم ﴿١﴾ ذلك الكتب لا ريب فيه هدى
للمتقين ﴿٢﴾ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة
ومما رزقنهم ينفقون ﴿٣﴾ والذين يؤمنون بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون ﴿٤﴾
أولئك على هدى من ربهم وأولئك
هم المفلحون ﴿٥﴾

آيات هذا القِسْم « الكتاب المعجز هدًى للمّتقين » خمس . وتتكوّن الآية الكريمة الأولى « الٓمٓ » من الحروف الثّلاثة الّتى تفتتح بها السّورة الكريمة . وإذا كان قد فهم بعض العلماء معنى هذه الحروف المقطّعة الّتى تفتتح بها مجموعة من السّور بأنّ فيها تنبيهًا إلى كون القرآن الكريم المعجز مؤلّفاً من كلمات مؤلّفة هى بدورها من ذات الحروف الّتى يستعملها العرب والّتى رُمِز إليها بهذه الحروف المقطعة ، فإنّ الآية الكريمة الثّانية تتحدّث عن هذا الكتاب العزيز . فهو الكتاب المعجز ، وعن طبيعته فهو لا ريب فيه ، وعن أهمّ وظيفةٍ له فهو هدًى للمتّقين . وفى الآيتين الكريمتين التّاليتين يتمّ الحديث عن نعوت هؤلاء المتّقين ، مبتدئا بالإيمان بالغيب ، منتهياً بالإيمان بأهمّ مقوّمات الإيمان بالغيب ألا وهو اليوم الآخر . وما بين الغيبين من صفات خادما لهما . وهذه الصّفات أو النّعوت هى إقامة الصّلاة ، والإنفاق ممّا رزقهم الله تعالى ، والإيمان بهذا الكتاب العزيز المنزّل من الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ والإيمان بالكتب السّابقة المنزّلة على الأنبياء السّابقين . وتتحدّث الآية الكريمة الخامسة والأخيرة عن ثمرة إيمان المتقين وإيقانهم . إنّهم فى هذه الحياة الدّنيا على هدًى من ربّهم . وفى الآخرة هم المفلحون الفائزون بالنّعيم النّاجون من الجحيم . قال تعالى : ﴿ الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين . الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدًى من ربّهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

ونتحوّل إلى الدّراسة المتأمّلة .

الآية رقم (١)

تبدأ سورة البقرة المدنيّة الكريمة بحروفٍ مقطّعة ثلاثة تشكّل آيةً كريمة قائمةً برأسها « الم » .

وللعلماء خلال العصور اجتهاداتٌ لطيفةٌ وموفّقة فى دراستهم للحروف الّتى ابتدأت بها مجموعةٌ من السّور ، بلغت عند بعضهم تسعاً وعشرين سورة[١] باعتبار مطلعى سورتى طه ويس « طه » و « يس » من هذه الحروف[٢] علماً بأنّ من العلماء من اعتبر طه ويس من أسماء المصطفى ﷺ ومن هؤلاء القاضى عياض فى الشّفا بتعريف حقوق المصطفى[٣] .

وهذه هى السّور الّتى افتتحت بالحروف .

[١] سورة البقرة	[٢] سورة آل عمران	[٣] سورة الأعراف
[٤] سورة يونس	[٥] سورة هود	[٦] سورة يوسف
[٧] سورة الرّعد	[٨] سورة إبراهيم	[٩] سورة الحجر
[١٠] سورة مريم	[١١] سورة طه	[١٢] سورة الشّعراء
[١٣] سورة النّمل	[١٤] سورة القصص	[١٥] سورة العنكبوت
[١٦] سورة الرّوم	[١٧] سورة لقمان	[١٨] سورة السّجدة
[١٩] سورة يس	[٢٠] سورة ص	[٢١] سورة غافر
[٢٢] سورة فصّلت	[٢٣] سورة الشّورى	[٢٤] سورة الزّخرف
[٢٥] سورة الدّخان	[٢٦] سورة الجاثية	[٢٧] سورة الأحقاف
[٢٨] سورة ق	[٢٩] سورةالقلم .	

ومن الجوانب الّتى استرعت انتباه العلماء معانى هذه الحروف . وقد انقسم العلماء

---

(١) الكشّاف ٧٨/١ وتفسير ابن كثير ٣٨/١
بينما ذهب الباقلاّنى فى إعجاز القرآن ص ٤٤ إلى كونها ثمانياً وعشرين سورة .
(٢) ومن هؤلاء كذلك أبو حيّان . انظر البحر المحيط ٣٥/١
(٣) انظر ٣٢/١ و ٣٣

فريقين . الفريق الأوّل هو الّذى ذهب إلى كون هذه الحروف من المتشابه الّذى استأثر الله تعالى بعلمه . ومن ثمّ يصحّ أن يكون تعبير هؤلاء فى مثل القول : الله أعلم بمراده به . وروى هذا القول عن أبى بكرٍ الصّديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما[١] وإلى مثل هذا التفسير مال القرطبى[٢] مَثَلاً وأبو حيّان[٣] وتفسير الجلالين .

والفريق الثّانى ويمثّله جمهور العلماء ، وهو الّذى ذهب إلى كون هذه الحروف لها معانٍ ، وعلينا أن نجتهد فى البحث عن هذه المعانى.

وإنّ مِنْ أنْفَسِ الآراء فى هذا المجال الرّأى الّذى ينسب إلى قطرب والفرّاء وغيرهما[٤] والّذى يذهب إلى كون هذه الحروف المقطّعة الّتى افتتح بها عددٌ من سور القرآن الكريم ، مكملةً للتحدّى بالقرآن الكريم ومتمّمةً لإعجازه . فإذا كان العرب عموماً ، قبيلة قريش خصوصاً ، الّتى تعتبر خلال العصور ، الجماعة النّموذجيَّة الّتى يصحّ لها وحدها أن تغامر بقبول التحدّى القرآنىّ ، لو كان القرآن الكريم مِمَّا يصح مجىء البشر بسورةٍ واحدة من مثله ، فقد تحقّق لقريش من الأسباب ، وبخاصّة النّفسيَّة ، ما يحملها على ذلك ، إذا كان العرب عموماً ، وقبيلة قريش خصوصاً ، قد أقرّوا جميعاً بالعجز عن قبول التّحدّى القرآنىّ ، فإنّ حروف الفواتح امتدادٌ لذلك الإعجاز ، وتنبيهٌ عليه ، وتأييدٌ له . فهذه الحروف الّتى لازال البشر يجتهدون فى البحث عن معانٍ جديدةٍ لها ، حينما تقرع الآذان ، يتبيّن السّامعون أنّها هى ذات الحروف الّتى تألّفت منها ألفاظهم ، ونظّمت فيها عباراتهم . ومن ثمّ فالتّحدّى لهم إنّما تمّ بكلامٍ مؤلّف من ذات الحروف التى يؤلفون بها ألفاظهم وينظمون بها كلامهم الشّعرىّ والنّثرىّ على حدّ سواء ، فلم يقع التحدّى بكلامٍ مؤلّف من غير حروفهم وألفاظهم . وحينما يقف البشر على هذه الحقيقة ، يكون التحدّى بالقرآن الكريم أعمق غوراً وأبعد أثراً ، إذ يتبيّنون أنّ التّحدّى إنّما هو بنظم هذا الكلام المعجز . ولهذا لم يأت البشر ولن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ منه ، ولو كان بعض البشر لبعض ظهيرا ، ولو اجتمعت الإنس والجنّ لهذا الغرض .

---

(١) تفسير القرطبى ١٣٤ (٢) تفسير القرطبى ١٣٤

(٣) البحر المحيط ٣٥/١

(٤) انظر تفسيرالقرطبى ١٣٤ والبحر المحيط ٣٥/١ والكشّاف ٧٤/١

وهذه الحروف فى أوائل السّور الّتى بلغ مجموعها بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى ا ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن والّتى يجمعها القول : نصٌّ حكيمٌ قاطعٌ له سرّ[١] قد قام العلماء بدراسة ممتعة لطبيعتها ، ومن هؤلاء الباقلانّى فى إعجاز القرآن[٢] المتوفّى سنة ٤٠٣ هـ . ومن أحسنهم تعبيراً عن هذه الطّبيعة الزّمخشرىّ المتوفى سنة ٥٣٨ هـ. والّذى قال عنها فى الكشّاف[٣] ما يلى : « واعلم أنّك إذا تأملت ما أورده الله عزّ سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر سواء ، وهى الألف واللّام والميم والصّاد والرّاء والكاف والهاء والياء والعين والطّاء والسّين والحاء والقاف والنّون ، فى تسع وعشرين سورة ، على عدد حروف المعجم .

ثمّ إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف . بيان ذلك أنّ فيها من **المهموسة** نصفها ، الصّاد والكاف والهاء والسّين والحاء . ومن **المجهورة** نصفها ، الألف واللّام والميم والرّاء والعين والطّاء والقاف والياء والنّون ، ومن **الشديدة** نصفها ، الألف والكاف والطّاء والقاف . ومن **الرّخوة** نصفها ، اللّام والميم والرّاء والصّاد والهاء والعين والسّين والحاء والياء والنّون . ومن **المطبقة** نصفها ، الصّاد والطّاء . ومن **المنفتحة** نصفها ، الألف واللّام والميم والرّاء والكاف والهاء والعين والسّين والحاء والقاف والياء والنّون . ومن **المستعلية** نصفها ، القاف والصّاد والطّاء . ومن **المنخفضة** نصفها ، الألف واللّام والميم والرّاء والكاف والهاء والياء والعين والسّين والحاء والنّون . ومن حروف **القلقلة** نصفها ، القاف والطّاء[٤] .

ثم إذا استقريت الكلم وتركيبها رأيت الحروف الّتى ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة ، مكثورةً بالمذكورة منها ، فسبحان الّذى دقّت فى كل شيءٍ حكمته ..... وممّا يدلّ على أنّه تعمّد بالذّكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً فى تراكيب الكلم ، أنّ الألف واللّام ، لمّا تكاثر وقوعهما فيها ، جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكرّرتين ، وهى فواتح سورة البقرة ، وآل عمران ، والرّوم ، والعنكبوت ، ولقمان ، والسّجدة ،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٧/١ (٢) ص ٤٤ ، ٤٥

(٣) ٧٧/١

(٤) حروف القلقلة خمسة « قطب جد » فثمة تسامحٌ فى التّعبير .

والأعراف ، والرّعد ، ويونس ، وإبراهيم ، وهود ، ويوسف ، والحجر » .

والباقلاّنى فى إعجاز القرآن نظر إلى هذه الفواتح من زاويتين أخريين **الأولى** من زاوية طبائع هذه الفواتح جميعاً ، فتبينّ أنّها تسير فى بنائها وفق طرائق العرب فى بناء الألفاظ . فإذا كان أكثر كلام العرب من الثّلاثىّ ، فإنّ أكثر هذه الفواتح تتكوّن من ثلاثة أحرف **والأخرى** من زاوية طبيعية « الم » فاتحة سورة البقرة وغيرها من السّور . يقول بشأن الزّاوية الأولى[١] : « وإنّما فُضِّلت العربيّة على غيرها لاعتدالها فى الوضع . لذلك وضع أصلها على أنّ أكثرها هو بالحروف المعتدلة ، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة فى نظمها ، وأسقطوها من كلامهم ، وجعلوا عامّة لسانهم على الأعدل . ولذلك صار أكثر كلامهم من الثّلاثىّ ؛ لأنّهم بدأوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حَرْفاً وُصْلةً بين الحرفين ، ليتمّ الابتداء والانتهاء على ذلك . والثّنائىّ أقلّ . وكذلك الرّباعىّ والخماسىّ أقلّ . ولو كان ثنائيّاً لتكرّرت الحروف . ولو كان كلّه رباعيّاً أو خماسيّاً لكثرت الكلمات .

وكذلك بُنِى أمر الحروف الّتى ابتدئ بها السُّور على هذا . فأكثر هذه السّور الّتى ابتدئت بذكر الحروف ، ذُكِر فيها ثلاثة أحرف . وما هو أربعة أحرف سورتان . وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان » .

ويقول بشأن الزّاوية الأخرى[٢] :« وقد يمكن أن تعاد فاتحة كلّ سورةٍ لفائدةٍ تخصّها فى النّظم ، إذا كانت حروفاً . كنحو « الم » لأنّ الألف المبدوء بها هى أقصاها مطلعاً ، واللاّم متوسّطة ، والميم متطرّفة ، لأنّها تأخذ فى الشّفة . فنبّه بذكرها على غيرها من الحروف ، وبيّن أنّه إنّما أتاهم بكلام منظوم ، ممّا يتعارفون من الحروف الّتى تتردّد بين هذين الطّرفين .

ويشبه أن يكون التّنصيف وقع فى هذه الحروف دون الألف[٣] ، لأنّ الألف قد تُلغى ، وقد تقع الهمزة وهى موقعاً واحدا» .

ومن لطيف ما يلاحظ بشأن هذه الفواتح أنّ « كل سورةٍ افتتحت بالحروف فلابدّ

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٨٨ (٢) إعجاز القرآن ص ٤٦

(٣) حروف المعجم بالألف تسعة وعشرون وبدونها ثمانيةٌ وعشرون وعدد حروف فواتح السّور أربعة عشر حرفاً فهى نصف الثّمانية والعشرين .

أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلومٌ بالاستقراء وهو الواقع فى تسعٍ وعشرين سورة » . ومن لطيف ما لوحظ أنّ الحديث عن القرآن الكريم يجىء إثر هذه الفواتح غالباً . وثمّة أربع سور تأخّر فيها الحديث بعد الفواتح عن القرآن الكريم ، وهذه السور هى مريم والعنكبوت والرّوم والقلم . وبشأن سورة مريم جاء الحديث عن الكتاب العزيز فى الآية الكريمة السّادسة عشرة . قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً ﴾ وبشأن سورة العنكبوت كان الحديث عن القرآن الكريم مستفيضاً فى الآيات الكريمات (٤٥ ــ ٥١) وتكاد تلحق الآية الثانية والخمسون بها . وبشأن سورة الرّوم كان الحديث عن القرآن الكريم فى آخرها . وبشأن سورة القلم كان الحديث عن القرآن الكريم فى الآية الخامسة عشرة .

وهذا بيانٌ بفواتح سور القرآن الكريم التّسع والعشرين المبتدئة بهذه الحروف والانتصار للقرآن الكريم وبيان إعجازه ونظمه .

[١] سورة البقرة : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ .

[٢] سورة آل عمران : ﴿ الم . الله لا إلٰه إلاّ هو الحىّ القيوّم . نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التّوراة والإنجيل ، من قبل هدًى للنّاس وأنزل الفرقان . إنّ الّذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديدٌ والله عزيزٌ ذو انتقام ، إنّ الله لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . هو الّذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم . هو الّذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات . فأمّا الّذين فى قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَهُ إلاّ الله . والرّاسخون فى العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا و ما يذّكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

[٣] سورة الأعراف : ﴿ المص . كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ .

[٤] سورة يونس : ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

[٥] سورة هود : ﴿ الر ، كتابٌ أُحْكِمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيمٍ خبير ﴾ .

[٦] سوة يوسف : ﴿ الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون . نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

[٧] سورة الرّعد : ﴿ المر ، تلك آيات الكتاب . والّذى أُنْزل إليك من ربّك الحقّ ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون ﴾ .

[٨] سورة إبراهيم . ﴿ الر ، كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج النّاس من الظُّلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

[٩] سورة الحجر : ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ .

[١٠] سورة مريم : ﴿ كهيعص ﴾ الآية [١] ﴿ ..... واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيّا « الآية (١٦) » ﴾ .

[١١] سورة طه : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقى ﴾ .

[١٢] سورة الشعراء . ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

[١٣] سورة النمل : ﴿ طس ، تلك آيات القرآن وكتابٍ مبين ﴾ .

[١٤] سورة القصص : ﴿ طسم .تلك آيات الكتاب المبين ﴾ .

[١٥] سورة العنكبوت : ﴿ الم . ﴾ الآية [١] ﴿ ..... اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصّلاة . إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر . والله يعلم ما تصنعون . ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالّتى هى أحسن إلاّ الّذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالّذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحدٌ ونحن له مسلمون . وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به . ومن هؤلاء من يؤمن به . وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ فى صدور الّذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آياتٌ من ربّه ، قل إنما الآيات عند الله وإنّما أنا نذيرٌ مبين .أَوَ لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلى عليهم . إنّ فى ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بينى وبينكم شهيد يعلم ما فى السّماوات والأرض . والّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ الآيات « ٤٥ — ٥٢ » .

[١٦] سورة الرّوم : ﴿ الم . ﴾ الآية[1] ﴿ ..... ولقد ضربنا للنّاس فى هذا القرآن من كلّ مثل . ولئن جئتهم بآيةٍ ليقولَنَّ الّذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لا يعلمون . فاصبر إنّ وعد الله حقٌّ ولا يستخفنّك الّذين لا يوقنون ﴾ الآيات « ٥٨ — ٦٠ » .

[١٧] سورة لقمان : ﴿ الم . تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

[١٨] سورة السّجدة : ﴿ الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين . أم يقولون افتراه . بل هو الحقّ من ربّك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون ﴾ .

[١٩] سورة يس : ﴿ يس . والقرآن الحكيم ﴾ .

[٢٠] سورة ص : ﴿ ص . والقرآن ذى الذّكر ﴾ .

[٢١] سورة غافر : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ .

[٢٢] سورة فصّلت : ﴿ حم . تنزيلٌ من الرّحمٰن الرّحيم ﴾ .

[٢٣] سورة الشّورى . ﴿ حم . عسق . كذلك يوحِى إليك وإلى الّذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ .

[٢٤] سورة الزّخرف : ﴿ حم . والكتاب المبين . إنّا جعلناه قرآناً عربيًّا لعلّكم تعقلون . وإنّه فى أمّ الكتاب لدينا لعلىٌّ حكيم ﴾ .

[٢٥] سورة الدّخان : ﴿ حم . والكتاب المبين . إنّا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنّا كنّا منذرين ﴾ .

[٢٦] سورة الجاثية : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

[٢٧] سورة الأحقاف : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيزالحكيم ﴾ .

[٢٨] سورة ق : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾ .

[٢٩] سوره القلم : ﴿ ن . والقلم وما يسطرون ﴾ الآية[1] ﴿ إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ﴾ الآية (١٥) .

الآية رقم (٢)

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمّتقين ﴾ .

ذلك : اسم إشارة للبعد . وأصله ذا وهو يدلّ على القرب . فإذا دخلت الكاف فقلت ذاك دلّ على التّوسّط . فإذا أدخلت اللّام فقلت ذلك دلّ على البعد[١] .

الكتاب : مصدر مِنْ كتب يكتب إذا جمع ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها . وتكتّبت الخيل صارت كتائب ..... والكتاب هو خطّ الكاتب حروف المعجم مجموعةً أو متفرّقة . وسمّى كتاباً وإن كان مكتوباً[٢] .

لا ريب فيه : لا شكّ فيه[٣] وقال أبو الدّرداء وابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والرّبيع بن أنس ومقاتل بن حيّان والسُّدّى وقتادة وإسماعيل بن أبى خالد ، وقال ابن حاتم لا أعلم فى هذا خلافا[٤] .

تبيّنا بشأن أولى آيات السّورة الكريمة : « الم » أنّ هذه الحروف الّتى ابتدأت بها السّورة ، يصحّ أن يفهم منها أنّ فى الابتداء بها إيماءً بالتّحدّى بالقرآن الكريم المتكوّنة كلماته من هذه الحروف ، المؤتلف كلامه من هذه الكلمات . وإنّ كلاًّ من الحروف والكلمات يعرفه العرب وله يستعملون ولكنّ العبرة بالنّظم الّذى كان به هذا الكتاب معجزا . وإنّ هذا الإيماء المفهوم ضمناً من هذه الحروف المفتتحة بها السّورة الكريمة ، يتّخذ سلّماً من أجل التصريح به بعد الإيماء إليه والتّلميح به .

وها هى ذى الآية الكريمة تشير إلى ذلك الكتاب العزيز صراحةً ، وإلى طبيعته ، وإلى أهمّ نعوته . قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ وفى أىّ الطُّرُقِ يشار إلى هذا الكتاب العزيز ؟ فى الطّريق الّذى يعرف به سموّ مكانه ورفيع منزلته . إنّه يشار إليه باسم الإشارة الدّالّ على البُعْد « ذلك الكتاب » وكأنّ المعنى : ذلك الكتاب

---

(١) انظر البحر المحيط ٣٢/١ ، ٣٥ (٢) تفسير القرطبى ص ١٣٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٥/١ وتفسير القرطبىّ ص ١٣٨ ولسان العرب « ريب » والجلالين والكشاف ٨٦/١ والبحر المحيط ٣٣/١ وتفسير ابن كثير ٣٩/١

(٤) تفسير ابن كثير ٣٩/١

العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والّذى تحدّى الله تعالى به الثّقلين الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورةٍ واحدةٍ من مثله فعجزوا . وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ . وكأنّ المعنى : « أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل . كأنّ ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وأنّه الّذى يستأهل أن يسمّى كتاباً كما تقول : هو الرّجل أى الكامل فى الرّجوليّة الجامع لما يكون فى الرّجال من مرضيّات الخصال وكما قال :

هم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد »[٢] .

وبعد التّصريح برفيع منزلة الكتاب العزيز والتّنبيه إلى إعجازه بعد التّلميح إلى ذلك فى فاتحة السّورة « الم » تبيّن الآية الكريمة طبيعة هذا الكتاب العزيز « لا ريب فيه » وإنّ تعلّق الجارّ والمجرور فيه بلفظ ريب فى قوله تعالى من سورة السّجدة[٣] : ﴿ الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين ﴾ يعتبر مسعفاً للقراءة الّتى تجعل الجارّ والمجرور فى آية سورة البقرة متعلّقاً هو الآخر بلفظ ريب . يقول على سبيل المثال الزّمخشرىّ فى الكشاف[٤] : « والوقف على فيه هو المشهور . وعن نافع وعاصم أنّهما وقفا على ريب . ولابدّ للواقف[٥] من أن ينوى خبرا . ونظيره قوله تعالى : قالوا لا ضير . وقول العرب : لا بأس . وهى كثيرةٌ فى لسان أهل الحجاز . والتّقدير : لا ريب فيه فيه هدًى ..... » .

وفى ضوء كون الرّيْب بمعنى الشكّ والظّنّة والتّهمة [٦] وفى الحديث : « دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك» ، يروى بفتح الياء وضمّها ، أى دع ما تشكّ فيه إلى ما لاتشكّ فيه[٧] يكون معنى قوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ لا شكّ فيه ولا ارتياب[٨]

---

(١) سورة الإسراء ٨٨ (٢) الكشاف ١/٨٥

(٣) الآية ١ ، ٢

(٤) ١/٨٨ وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٩ فثمّة موافقةٌ لرأى الزّمخشرىّ .

(٥) المراد الواقف على لفظ « ريب » (٦) اللّسان « ريب »

(٧) اللّسان « ريب » وانظر الكشّاف ١/٨٦ والبحر المحيط ١/٣٣

(٨) تفسير القرطبى .

فكتاب الله تعالى المعجز بنظمه ومعناه ، بشكله ومبناه ، منفيٌّ عنه الشّكّ ، ناءٍ عنه الارتياب ، تطمئنّ به قلوب المؤمنين ، وترتاح له نفوس المتّقين ، وترضى بمعناه ومبناه عقول الأذكياء والألمعيّين .

وإذا كان الكتاب العزيز بمنأًى عن الشّكّ والارتياب ، وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وإنّه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ﴾ وقال[٢] : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربَّهُمْ ثُم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هُدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ وقال[٣] : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقال[٤] ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ . وإذا كان وراء ذلك ، الّذين على قلوبهم أقفالها فى ريبٍ ممّا نزّل الله تعالى على عبده وحبيبه محمّد ﷺ ، فإنّ الرّيب والشّكّ والقلق والاضطراب نابعٌ كلّ ذلك من نفوسِ الأقوام المريضة ، وفِطَرِهم غير المستقيمة ، وعقولهم المنحرفة .

يقول القرطبيّ[٥] « لا ريب نفيٌ عامّ . ولذلك نصب الرّيب به » ويقول أبو حيّان[٦] فى لا من القول : « لا ريب فيه » : « وإذا عملت عمل إنّ أفادت الاستغراق . فنفت هنا كلّ ريب . والفتح هو قراءة الجمهور » .

وبعد أن نفت الآية الكريمة عن القرآن الكريم الشّك والرّيب ، أثبتت له الهداية . قال تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ وبسبب كون الجارّ والمجرور « فيه » متعلقاً فى رأى بعضهم ومرتبطاً بـ « هدىً للمتّقين » فإنّا نودّ أن نقف على رأى ابن كثير الّذى وافق رأى الزّمخشرىّ السابق . يقول[٧] : « ومن القرّاء من يقف على قوله تعالى : لا ريب . ويبتدئ بقوله تعالى : فيه هدىً للمتّقين . والوقف على قوله تعالى : لا ريب فيه ، أَوْلى للآية الّتى ذكرناها[٨] .

---

(١) سورة فصّلت ٤١ ، ٤٢
(٢) سورة الزُّمر ٢٣
(٣) سورة النساء ٨٢
(٤) سورة محمّد ﷺ ٢٤
(٥) ص ١٣٨
(٦) البحر المحيط ٣٦/١
(٧) تفسير ابن كثير ٣٩/١
(٨) يريد الآية الثّانية من سورة السّجدة

والآية الكريمة تجعل القرآن الكريم هو عين الهدى ، فلا يقال مثلاً « هادٍ للمتّقين » ولكن « هدًى للمتّقين » . والمعنى أنّ القرآن الكريم هو الهدى للطّريقة الّتى هى أقوم . وقد جاء فى سورة الإسراء[١] عن القرآن الكريم قوله عزّ من قائل : ﴿ إنّ هذا القرآن يَهْدى للّتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيرا ﴾ . والهدى فى كلام العرب معناه الرُّشد والبيان . أى فيه كشفٌ لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادة بيان وهدى[٢] والمعروف أنّ الهُدى هديان . هُدى دلالة ، وهو الّذى تقدر عليه الرّسل وأتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ ولكلّ قومٍ هاد ﴾ . وقال : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ فأثبت لهم الهدى الّذى معناه الدّلالة والدّعوة والتّنبيه . وتفرّد هو سبحانه بالهدى الّذى معناه التّأييد والتّوفيق . فقال لنبيّه ﷺ : إنّك لا تهدى من أحببت . فالهدى على هذا يجئ بمعنى خلق الإيمان فى القلب . ومنه قوله تعالى : أولئك على هدًى من ربّهم . وقوله : ويهدى من يشاء[٣] .

والهدى لفظ مؤنث . قال الفرّاء بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هدًى حسنة . وقال اللّحيانى : هو مذكّر[٤] .

وإنّما خُصّ المتّقون بالهدى ، وإن كان عامّاً للخلق أجمعين ، من قبيل التّشريف لهؤلاء المتّقين ، الّذين يعتبرون الثّمرة النّاضجة لمنهج القرآن الكريم التّربوى ، فقد حقّقوا بفضل الله تعالى الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له حقّ العبادة . وقد قال عزّ من قائل[٥] : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

فإن قلت : فلم قيل : هدًى للمتّقين والمتّقون مهتدون ؟ قلت : هو كقولك للعزيز المكرم : أعزّك الله وأكرمك ، تريد طلب الزّيادة إلى ما هو ثابتٌ فيه واستدامته كقوله : اهدنا الصّراط المستقيم[٦] ولفظ التّقوى مأخوذ من اتّقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك

---

(١) سورة الإسراء ٩ (٢) تفسير القرطبى ص ١٣٩

(٣) تفسير القرطبى ص ١٣٩ وانظر تفسير ابن كثير ١/٤٠

(٤) تفسير القرطبى ص ١٣٩ وانظر البحر المحيط ١/٣٣

(٥) سورة الذاريات ٥٦ (٦) الكشاف ١/٨٩

وبينه[١] وسأل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أبيًّا عن التّقوى فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم . قال : فماذا عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت . قال : فذاك التّقوى[٢] .

وروى ابن ماجة فى سننه عن أبى أمامة عن النّبىّ ﷺ أنّه كان يقول : ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيْراً له من زوجةٍ صالحة . إن أمرها اطاعته . وإن نظر إليها سرّته . وإن أقسم عليها أبرّته . وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله[٣]. عن الحسن : قوله : المتّقين قال : اتقوا ما حرّم عليهم وأدّوا ما افترض عليهم[٤] .

إنّ ذكر المتقين وطّأ لذكر صفاتهم فى الآيات الكريمة بعد ذلك .

(١) تفسير القرطبى ص ١٤٠

(٢) تفسير القرطبى ص ١٤٠

(٣) تفسير القرطبى ص ١٤١

(٤) تفسير الطّبرى ١/٧٧ وتفسير ابن كثير ١/٣٩

الآيــة رقــم (٣)

قال تعالى : ﴿ الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ هذه الآية الكريمة تبيّن ثلاثاً من صفات المتّقين . إنّهم الّذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصّلاة ، وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون .

فما المراد بالغيب ؟ أصل الغيب كلّ ما غاب عنك من شيء[١] . وقد اختلف المفسّرون فى تأويل الغيب هنا[٢] فمنهم من قال : القضاء والقدر. وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كلّ ما أخبر به الرّسول ﷺ ممّا لا تهتدى إليه العقول مِنْ أشراط السّاعة وعذاب القبر والحشر والنّشر والصّراط والميزان والجنّة والنّار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها[٣]. ويقول ابن كثير[٤] : « قال أبو جعفر الرّازى عن الرّبيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى : يؤمنون بالغيب ، قال : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيبٌ كُلُّه . وكذا قال قتادة بن دعامة » وعليه يكون معنى يؤمنون : يصدّقون[٥] والإيمان فى اللّغة التّصديق[٦] : « فَيُدْعى المصدِّق بالشّىء قولاً ، مؤمنا به ، ويدعى المصدَّق قولُه بفعله مؤمنا . ومن ذلك قول الله جلّ ثناؤه : وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين ، يعنى وما أنت بمصدّقٍ لنــا فى قولنا »[٧] .

وهو يتعدّى بالباء واللّام كما قال : ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم . فمــا آمــن

---

(١) تفسير الطبرى ١/٧٨ وتفسير القرطبى ص ١٤٢

(٢) تفسير القرطبى ص ١٤٢

(٣) تفسير القرطبى ص ١٤٢ وانظر تفسير الجلالين وتفسير الطبرى ١/٧٨

(٤) تفسير ابن كثير ١/٤١

(٥) تفسير الطبرى ١/٧٨ وتفسير القرطبى ص ١٤١

(٦) تفسير القرطبى ص ١٤١ وتفسير الطبرى ١/٧٨ والبحر المحيط ١/٣٨ وتفسير ابن كثير ١/٤٠

(٧) تفسير الطبرى ١/٧٨

لموسى[١] والتّعدّى باللاّم فى ضمنها تعدٍّ بالباء . فهذا فرق ما بين التّعديتين[٢] وأمّا تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقرّ وأعترف[٣] .

والإيمان كلمةٌ جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل . وإذا كان ذلك كذلك فالّذى هو أولى بتأويل الآية وأشبه بصفة القوم أن يكونوا موصوفين بالتّصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملا . إذ كان جلّ ثناؤه لم يحصرهم مِنْ معنى الإيمان على معنًى دون معنى . بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شيءٍ من معانيه أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل[٤] وهذا هو الإيمان الشّرعى المطلوب الّذى لا يكون إلاّ اعتقاداً وقولاً وعملاً . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمّة بل قد حكاه الشّافعىّ وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعا أنّ الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص وقد ورد فيه آثارٌ كثيرة وأحاديث[٥] وهذا هو الإيمان الشرعىّ المشار إليه فى حديث جبريل عليه السّلام حين قال للنّبىّ ﷺ : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمنٌ أفضل من إيمانٍ بغيب ثمّ قرأ : الّذين يؤمنون بالغيب[٦] فمن أخلّ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أخلّ بالشّهادة فهو كافر . ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق[٧] .

وبما أنّ الآية الكريمة تذكر نعوت المتّقين الّذين ختمت الآية الكريمة السّابقة بذكرهم : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ وعليه يكون اسم الموصول الّذين فى موضع خفض نعت للمّتقين[٨]

ويلاحظ أنّ هذا الجزء الأوّل من الآية الكريمة : ﴿ الّذين يؤمنون بالغيب ﴾ يشمل

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٤١ وانظر البحر المحيط ٣٨/١

(٢) البحر المحيط ٣٨/١

(٣) الكشّاف ٩٧/١ وانظر البحر المحيط ٣٨/١

(٤) تفسير الطّبرىّ ٧٨/١

(٥) تفسير ابن كثير ٤٠/١

(٦) تفسير القرطبى ص ١٤٢

(٧) الكشاف ٩٨/١

(٨) انظر تفسير القرطبى ص ١٤١ والكشّاف ٩٤/١

جانب الإيمان . وهو أهمّ الجوانب وأشملها بالقياس إلى الجانب البدنىّ الّذى يرتبط بالصّلاة وهو الجانب الّذى أشار إليه الجزء الثانى ﴿ ويقيمون الصّلاة ﴾ وبالقياس إلى جانب المال الّذى أشار إليه الجزء الثالث والأخير ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

بعد أن تحدّثت الآية الكريمة عن أهمّ نعوت المتّقين ، وهى صفة الإيمان بالغيب ، تحوّلت إلى الحديث عن نعتٍ من أهمّ النّعوت العمليّة الدّالّة على الإيمان بالغيب ، وهذا النّعت هو الصّلاة عماد الدّين « ويقيمون الصلاة » .

وإقامة الصّلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها ..... يقال : قام الشّئ أى دام وثبت ..... مِنْ قولك قام الحقّ أى ظَهَرَ وثبت[١] ومن هنا كان معنى يقيمون يديمون . وأقامه ، أى أدامه . وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه . ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع[٢] والهمزة فى أقام للتّعدية[٣] والصّلاة هنا الصّلوات الخمس . قاله مقاتل . أو الفرائض والنّوافل قاله الجمهور[٤] قال ابن عبّاس : ويقيمون الصّلاة أى يقيمون الصلاة بفروضها . وقال الضّحّاك عن ابن عباس : إقامة الصّلاة إتمام الرّكوع والسّجود والتّلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها .

وقال قتادة : إقامة الصّلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيّان : إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطّهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتّشهّد والصّلاة على النّبىّ ﷺ فهذا إقامتها[٥] .

وأصل الصّلاة فى كلام العرب الدّعاء[٦] ثمّ استعملت الصّلاة فى الشّرع فى ذات الرّكوع والسّجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة[٧] ويقول الطّبرىّ[٨] : « وأرى أنّ الصّلاة المفروضة سمّيت صلاة لأنّ المصلّى متعرِّضٌ لاستنجاح طِلْبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربّه

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٤٣ (٢) تفسير القرطبى ص ١٤٣
(٣) البحر المحيط ٣٨/١ (٤) البحر المحيط ٤٠/١
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢/١ وانظر تفسير الطّبرى ٨٠/١
(٦) تفسير ابن كثير ٤٢/١ وانظر فى اشتقاق « الصّلاة » البحر المحيط ٣٨/١ وتفسير ابن كثير ٤٣/١
(٧) تفسير ابن كثير ٤٣/١ (٨) تفسير الطّبرى ٨١/١

فيها من حاجاته تعرّض الدّاعى بدعائه ربّه واستنجاح حاجاته وسؤله » .

وكان عليه الصّلاة والسّلام إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة[١] .

وتحدّثت الآية الكريمة بعد ذلك عن جانب المال : « وممّا رزقناهم ينفقـون » ويلاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة تستعمل حرف الجرّ من الدّالّ على التّبعيض . فلا ينفق المتّقون كلَّ ما رزقهم الله تعالى إنّما ينفقون منه . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من قوله تعالى[٢] : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعد ملوماً محسورا ﴾ وقوله تعالى فى نعوت عباد الرّحمن[٣] : ﴿ والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا و لم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما ﴾ .

وقد أسند الرّزق إلى الذّات العليّة ﴿ وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ فلا يكون الإنفاق إلاّ من الحلال الطيّب ، لأنّ الله تعالى طيّبٌ ولا يقبل إلاّ طيّبا . وعليه يكون معنى ينفقون : يُخْرجون[٤] وأصل هذه المادّة يدلّ على الخروج والذّهاب[٥] ومنه نفق البيع أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونفقت الدّابة ، خرجت روحها . ومنه النّافقاء لجُحر اليربوع الّذى يخرج منه إذا أخذ من جهةٍ أخرى . ومنه المنافق لأنّه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه[٦] والهمزة للتّعدية[٧] وعليه فالإنفاق إخراج المال من اليد[٨] .

ومع أنّ الإنفاق يعنى إخراج الزّكاة فى المقام الأوّل ، لأنّ الزّكاة أحد أركان الإسلام ، فهى كالصّلاة الّتى نصّت عليها الآية الكريمة ، ثمّ إنّه كثر فى القرآن الكريم وفيما يزيد على الثّمانين موضعاً ، اقتران الزّكاة بالصّلاة ، وكذلك فى السُّنّة النّبويّة المطهّرة ، ومن ثمّ قيل إنّ المراد بالنّفقة هـٰهنا الزّكاة ، وقد روى هذا عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما[٩] فالملاحظ أنّ التّعبير لم ينصّ على الزّكاة وحدها ، رغم التّشابه بين الآية الكريمة وأول سورة النّمل وسورة لقمان اللّتين نصّ فيهما على الزّكاة ، إنّما أشار التّعبير إلى الإنفاق

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٤٨
(٢) سورة الإسراء ٢٩
(٣) سورة الفرقان ٦٧
(٤) تفسير القرطبى ص ١٥٥
(٥) البحر المحيط ٣٩/١
(٦) تفسير القرطبى ص ١٥٥
(٧) البحر المحيط ٣٩/١
(٨) تفسير القرطبى ١٥٥
(٩) تفسير القرطبى ص ١٥٥ والبحر المحيط ٤١/١

العامّ ، ومن هنا يصحّ الرّأى الآخر القائل إنّ النّفقة تشمل الزكاة وكلّ ما ينفقه المرء ابتغاء وجه ربّه الأعلى ، وهذا الرّأى يتمشّى مع الرّأى القائل بكون الصلاة المقصودة فى الآية الكريمة صلاة الفرض وصلاة النّفل . روى مسلم عن أبى هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : دينارٌ أنفقته فى سبيل الله ، ودينارٌ أنفقته فى رقبة ، ودينارٌ تصدّقت به على مسكين ، ودينارٌ أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الّذى أنفقته على أهلك[١] يقول القرطبىّ[٢] : « وقيل هو عام وهو الصّحيح ، لأنّه خرج مخرج المدح فى الإنفاق ممّا رزقوا . وذلك لا يكون إلاّ من الحلال . أى يؤتون ما ألزمهم الشّرع من زكاةٍ وغيرها ممّا يَعِنّ فى بعض الأحوال ، مع ما ندبهم إليه » .

وقد تبيّن العلماء أنّ الآية الكريمة تضمّنت الأمور الثّلاثة الّتى تعتبر عمد أفعال المتّقى ، وهى الاعتقاد القلبىّ المتمثّل فى الإيمان بالغيب ، والفعل البدنى وهو الصّلاة ، وإخراج المال[٣] وقد جاء فى الآية الكريمة صلات اسم الموصول « الّذين » أفعالاً مضارعة يؤمنون ، يقيمون ، ينفقون . يقول أبو حيّان[٤] فى تعليل ذلك : « لأنّ المضارع فيما ذكر البيانيّون مشعرٌ بالتّجدّد والحدوث بخلاف اسم الفاعل لأنّه عندهم مشعرٌ بالثّبوت . والأمدح فى صفة المتّقين تجدّد الأوصاف » ويقول بشأن ترتيب هذه الأمور الثّلاثة[٥] : « وترتيب الصّلات[٦] على حسب الإلزام . فالإيمان بالغيب لازمٌ للمكلّف دائما . والصّلاة لازمةٌ فى أكثر الأوقات . والنّفقة لازمةٌ فى بعض الأوقات . وهذا من باب تقديم الأهمّ فالأهمّ » .

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٥٥ (٢) تفسير القرطبى ص ١٥٦

(٣) انظر البحر المحيط ١/٤٠ وتفسير القرطبى ١٥٦ .

(٤) البحر المحيط ١/٤١ (٥) البحر المحيط ١/٤١

(٦) جاء فى الأصل « الصلاة » .

الآيــة رقــم (٤)

قال تعالى : ﴿ والّذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

تضيف الآية الكريمة ، على غرار سابقتها ، ثلاثةً من نعوت المّتقين . فمن نعوت المّتقين أنّهم يؤمنون بما أنزل الله تعالى إلى محمّد بن عبد الله ﷺ من قرآن كريم ، فى أسمى طرق الوحى ، وبما أنزل الله تعالى إلى الأنبياء السّابقين من كتبٍ سماويّة ، ثمّ هم بالآخرة يوقنون .

ومن أوّل ما يلاحظ على الآية أنّها تبدأ كسابقتها باسم الموصول المعطوف على سابقه « والّذين » ممّا يصحّ أن يفهم معه أنّ بين كلٍّ من الثّلاثة النّعوت فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين نوعاً من علاقة ، إضافةً إلى العلاقة بين النّعوت مجتمعة . فإذا كنّا تبيّنّا بشأن الآية الكريمة السّابقة نوعاً من علاقةٍ بين الإيمان بالغيب وهذا هو حظّ القلب وبين الصّلاة وللبدن حظّه منها إضافةً إلى الإيمان وبين الزّكاة وللمال حظّه منها إضافةً إلى الإيمان والجسد ، يضاف إلى ذلك كونُ الصّلاة من أكبر الأدلّة على الإيمان بالغيب واقتران الصّلاة بالزّكاة فى القرآن الكريم وفى السُّنّة المطهّرة كثيرا ، هذا إلى التّحوّل المطّرد من اللّازم دائماً وهو الإيمان ، إلى الّذى يليه وهو إقامة الصّلاة وهى خمس صلواتٍ مفروضةٍ فى اليوم واللّيلة ، إلى الّذى يليهما وهو الزّكاة الّتى ترتبط عادة بدورة زمنيّةٍ أكبر ، إذا كنّا تبيّنّا بشأن الآية الكريمة السّابقة كلَّ هذه الأنواع من العلاقات والتّرابط ، فإنّ فى الإمكان أن نتبيّن فى هذه الآية الكريمة الرّابعة نوعاً من علاقة بين نعوتها الثّلاثة . الإيمان بما أنزل الله تعالى على محمّد ﷺ وما أنزل على الأنبياء السّابقين والإيقان باليوم الآخر .

ومن أوّل ما يلاحظ أنّ كلاً من النّعوت الثّلاثة مرتبطٌ بزمن خاصٍّ به . وهذه الأزمان الثّلاثة ترتّب فى نسق بديع . إنّ نزول القرآن الكريم مرتبطٌ بالزّمن الحاضر . وإنّ نزول الكتب السّماوية السّابقة ، وهى من جنس الكتاب المنزل على محمّدٍ ﷺ ، مرتبطٌ بالزّمن الماضى ، فثمة عودةٌ إلى الماضى الّذى يصحّ ، بل ينبغى أن يكون سحيقاً . فلم

يبق سوى أن يتمّ التّحوّل إلى زمن سحيقٍ مقابل للماضى ألا وهو الزّمن المستقبل . وبما أنّ القرآن الكريم آخرُ الكتب السّماوية ، فلا كتاب سماويّاً بعده ، فقد كان التّحوّل إلى اليوم الآخر ، الّذى يعتبر الإيمان به والتّصديق بكلّ متعلّقاته « من البعث والنّشر والثّواب والعقاب والحساب والميزان وغير ذلك ممّا أعدّ الله لخلقه يوم القيامة »[1] من أكبر ثمار الإيمان بهذه الكتب السّماويّة والتّصديق بها ، إن لم يكن أكبر الثّمار فِعْلا .

ونتيجةً لهذا التّرتيب البديع لأنواع الأزمنة ، كان التّرتيب البديع لمتعلّقاتها . فمن الطّبيعىّ أن يكون إيمان أتباع المصطفى ﷺ بالكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إليه سابقاً على الإيمان بالكتب السّماوية الّتى أوحاها الله تعالى إلى النّبيّين السّابقين ، لأنّ الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو المصدّق لها المهيمن عليها . وإنّ من متعلّقات الإيمان بهذا الكتاب العزيز الإيمان بالكتب السّماويّة السّابقة ، وقد قال عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة[2] : ﴿ آمن الرّسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون . كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير ﴾ . وما أكثر الآياتِ الكريماتِ المعمّقةَ لهذه الحقيقة المؤكدة لها .

وحينما نتساءل عن أكبر ثمار الإيمان بالكتاب العزيز ، الّذى يعتبر الإيمان بالكتب السّماويّة السّابقة من متعلّقاته ، فإنّا نتبيّن أنّ أكبر الثّمار إنّما تتجلّى فى الإيمان باليوم الآخر . وإنّ نظم الآية الكريمة ليوحى بهذا الكبر . فنحن نتبيّن مثلاً أنّ الإيمان باليوم الآخر من أهمّ متعلّقات الإيمان بالغيب الّذى نصّت عليه الآية الكريمة السّابقة . وحينما تنصّ عليه الآية الكريمة التّالية وحده ، وحينما تختم به نعوت المتّقين ، وحينما يكون ثمّة توافق بين مكان الإيمان باليوم الآخر فى سياق النّعوت فهو آخرها وبين زمان اليوم الآخر ، فهو الآخر زمنا ، نستطيع أن نفهم من كلّ هذه الملابسات كبر هذا الأمر وعظم أهمّيّته .

وإنّ هذا الكبر وذلك العظم ليكاد ينصّ عليهما وراء ذلك نظم الآية الكريمة . فمن

---

(١) تفسير الطّبرى ١/٨٢

(٢) سورة البقرة ٢٨٥ .

أهمّ ما يلاحظ فى مجال المقارنة بين هذه الأمور الثّلاثة الّتى قَرَنَتْ بينها الآية الكريمة هو أنّ صفة الإيمان ينظم عقدها . ومع ذلك فقد تمّ بشأن اليوم الآخر عدولٌ من الإيمان إلى الإيقان . ولا شكَّ أنّ اليقين يتقدّم الإيمان عمقا . قال تعالى : ﴿ والّذين يؤمنون بما أُنْزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . « وكان الإيقان هو الّذى خصّ بالآخرة لكثرة غرائب متعلّقات الآخرة وما أعدّ فيها من الثّواب والعقاب السّرمديّين وتفصيل أنواع التّنعيم والتّعذيب ونشأة أصحابها على خلاف النّشأة الدّنيويّة ورؤية الله تعالى . فالآخرة أغرب فى الإيمان بالغيب من الكتاب المنزّل . فلذلك خصّ بلفظ الإيقان . ولأنّ المنزّل إلى الرسول ﷺ مشاهد أو كالمشاهد ، والآخرة غيبٌ صرف ، فناسب تعليق اليقين بما كان غيباً صِرفا »[1] .

ويلاحظ وراء ذلك أنّ الحديث عن الإيمان باليوم الآخر جاء فى جملة اسميّة ، خلافاً لما سبق . ثمّ إنّ هذه الجملة الاسمية تضمّنت اسم الضّمير « هم » الّذى يفيد التّوكيد . ويُفْهَم من كلّ ذلك أنّ يقين هؤلاء المؤمنين باليوم الآخر المتضمّن للغرائب الكثيرة ، مساوٍ لمتعلّقات ذلك اليوم الكثيرة من الغرائب الّتى تنتهى بالثّواب أو العقاب السرمديّين . يقول بشأن هذه الجملة الاسمية والتّوكيد أبو حيّان فى البحر المحيط [2] : « وإيراد هذه الجملة اسميّة ، وإن كانت الجملة معطوفةً على جملةٍ فعليّةٍ آكد فى الإخبار عن هؤلاء بالإيقان ، لأنّ قولك زيدٌ فعل ، آكد من فَعَل زيد ، لتكرار الاسم فى الكلام بكونه مضمرا . وتصديره مبتدأً يشعر بالاهتمام بالمحكوم عليه . كما أنّ التّقديم للفعل مشعرٌ بالاهتمام بالمحكوم به . وذكر لفظة هم فى قوله : هم يوقنون ، ولم يذكر لفظة هم فى قوله : وممّا رزقناهم ينفقون ، لأنّ وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق ، فاحتاج هذا إلى التّوكيد ، ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ..... » .

واليقين : العلم دون الشّك[3] والإيقان : التّحقّق للشّىء لسكونه ووضوحه . يقال : يقن الماء سكن وظهر ما تحته[4] وإنّما سمّيت الآخرة لأنّها بعد الدّنيا[5]

---

(١) البحر المحيط ٤٢/١ (٢) البحر المحيط ٤٢/١

(٣) تفسير القرطبى ص ١٥٧ والجلالين والكشّاف ١٠٥/١

(٤) البحر المحيط ٤١/١ (٥) تفسير ابن كثير ٤٣/١

والآخرة مشتقّة من التّأخّر لتأخّرها عنّا وتأخّرنا عنها ، كما أنّ الدّنيا مشتقّة من الدّنوّ[١] والآخرة تأنيث الآخر الّذى هو نقيض الأوّل . وهى صفة الدّار بدليل قوله : تلك الدّار الآخرة ، وهى من الصّفات الغالبة وكذلك الدّنيا[٢] .

الآيــة رقــم (٥)

قال تعالى : ﴿ أولئك على هدًى من ربّهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

هذه الآية الكريمة تجمع للمتّقين الّذين تحقّقت فيهم النّعوت السّابقة بين خيرى الدّنيا والآخرة . إنّهم فى هذه الحياة الدّنيا على هدًى من ربهم ، وهم فى الحياة الآخرة المفلحون الفائزون . وبهذا يتبيّن أنّ الحياتين ، الأولى والآخرة ، لا تنفصل إحداهما عن الأخرى فى يقين المسلم لله ربّ العالمين مطلقاً . لأنّ مفهوم العبادة فى الإسلام واسعٌ إلى أبعد درجات الاتّساع فكلّ عملٍ صالحٍ طيّب يريد به المسلم وجه ربه الأعلى يعتبر داخلاً فى مفهوم العبادة الواسع فى الإسلام ، بما فى ذلك لقمة الطّعام يضعها المرء فى فِى زوجته وهو يريد بذلك وجه ربّه الأعلى . وبذلك يتحقّق للمسلم لله ربّ العالمين الحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة ، وقد قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . إنهم فى هذه الحياة الدّنيا على هدًى من ربهم وإنّهم فى الآخرة هم المفلحون .

فكيف عبّرت الآية الكريمة عن حياة هؤلاء المتّقين الطيّبة فى الأولى ؟ فى أسمى الطّرق الّتى يفهم معها منزلة هؤلاء المتّقين الرّفيعة عند بارئهم . إنّهم يشار إليهم باسم الإشارة « أولئك » الدّال على البعد ، وفى ذلك تنبيهٌ على سموّ مكانتهم ورفيع منزلتهم .

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٥٧ (٢) الكشاف ١/١٠٥

(٣) سورة النحل ٩٧

يقول أبو حيان[١] : « أولئك اسم إشارة للجمع ، يشترك فيه المذكّر والمؤنث . والمشهور عند أصحابنا أنّه للرّتبة القصوى كأولالك قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك . ومن قال ألاك فواحده ذاك . وألالك مثل أولئك . وربّما قالوا أولئك فى غير العقلاء » وتَسْتعمل الجزئيّة الكريمة بعد ذلك حرف الجرّ « على » الدّالّ على الاستعلاء ، المتمشّى مع العلوّ الثّابت لأولئك المتّقين مكانةً ومكانا ، الدّالّ على تمكّنِ هؤلاء المّتقين من الهدى فكأنّهم مستعلون عليه ممتطون له . « شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشّىء وركبه . ونحوه هو على الحقّ وعلى الباطل . وقد صرّحوا بذلك فى قولهم : جعل الغواية مركبا ، وامتطى الجهل ، واقتعد غارب الهوى[٢] وقد جاء لفظ هدى منكّراً ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره[٣] وإنّما كان لهذا النّوع من الهدى ذلك الضّرب من النّعوت ، لأنّه هدًى من الله تعالى لهؤلاء المّتقين . وانظر إلى لفظ الرّب المستعمل فى السّياق ، أنّه اللّفظ الدّالّ على الخصوص ، والّذى يستعمل فى القرآن الكريم حينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان ، وحينما يكون القصد لفت الانتباه إلى نعم الله تعالى وآلائه الّتى لا تُحْصى والّتى ربّى جلّ وعلا بها خلقه . فالمطلوب منهم فى المقابل أن يرعوها حقّ رعايتها وأن يقدروها حقّ قدرها لأنّ هؤلاء العباد لو أرادوا عدّ نعم الله تعالى عليهم فإنّهم لن يحصوها فكيف بقيامهم بكلّ ما ينبغى عليهم القيام به شكرا لله تعالى عليها . ويلحق بلفظ الرّبّ ضمير الجماعة العائد على أولئك المتّقين الّذين رضى الله تعالى عنهم فهم على هدًى من ربهم وعلى نورٍ منه جلّ وعلا .

وينبغى أن نفطن إلى الهدى الّذى جاءت الإشارة إليه مرّتين اثنتين فى هذه المجموعة من الآيات الكريمات . فالكتاب العزيز هدًى للمتّقين ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى لّلمُتَّقين ﴾ وأولئك المتّقون ﴿ على هدًى من ربّهم ﴾ وينبغى كذلك أن نتبيّن الرّباط بين النّوعين من الهدى . فالكتاب العزيز هدًى لأنّه كلام رب العالمين ، نزل به الرّوح الأمين ، على قلب المصطفى ﷺ ليكون من المنذرين ، بلسان عربىٍّ مبين .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٢

(٢) الكشّاف ١/١١٠ وانظر البحر المحيط ١/٤٣

(٣) الكشّاف ١/١١١

وحينما آمن المتّقون بالرّسول الكريم وبالكتاب العزيز ، وترجموا الإيمان إلى عمل صالح زادهم الله تعالى هدًى إلى هداهم وآتاهم تقواهم فهم على هدًى من ربّهم أوّلاً وأخيراً . إنّ الهدى استمدّوه ابتداءً من الرّسول الكريم ومن الكتاب العظيم وقد أكرم الله تعالى الرّسول الكريم بنعمة الرّسالة وبنعمة ختم النّبوّة وبنعمةِ إنزال آخر الكتب السّماويّةِ عليه وأشرفها . وقد أكرم الله تعالى أولئك المتّقين الّذين جاهدوا فى سبيله جلّ وعلا بأن هداهم سبله جلّ وعلا وكان معهم دائماً وأبداًلأنّهم المحسنون ، فهم دائماً وأبداً ، وهم أوّلاً وأخيراً ، على هدًى من ربّهم جلّ وعلا .

وما دمنا عرفنا أنّ الهدى نوعان : هدًى بمعنى التّوجيه والإرشاد ، وهذا هو عمل المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهدًى بمعنى التّوفيق والإسعاد ، وهذا إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى وبتوفيقه ، فذلك معناه أنّ الهدى فى قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدىً من ربّهم ﴾ من جنس النّوع الثّانى . فما ازداد المتقون هدًى إلى هداهم ، وما استمرّوا على هداهم ، بل لم يهتدوا أساساً لولا أنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ قد وسعتهم . وفى ضوء تفرّده جلّ وعلا وحده لا شريك له بالهدى الّذى هو بمعنى التّأييد والتّوفيق ، يكون الهدى فى قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ هو هدىَ الدّلالة الّذى تقدر عليه الرّسل وأتباعهم كما مرَّ بنا من ذى قبل . ومعروفٌ أنّ هذا الكتاب العزيز هو كبرى معجزات محمّد بن عبد الله ﷺ ، وهو كبرى وسائله ﷺ لهدى الدّلالة الّذى يقدر عليه ﷺ بعونٍ منه جلّ وعلا وتوفيق يقول الطّبرىّ[1] « معنى ذلك أنّهم على نور من ربّهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إيّاهم وتوفيقه لهم » .

وإذا كانت الآية الكريمة قد عبّرت عن حياة المتّقين الأولى الطيّبة فى الطّريقة الرّفيعة الّتى عرفنا ، فإنّها عبّرت فى الطّريقة الرّفيعة ذاتها عن حياة المتّقين الطيّبة فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ فبما أنّ حديث الآية الكريمة عن نوعين من حياة المتّقين: الطّيّبة فى الأولى والآخرة ، كان ثمة عطفٌ بالواو « وأولئك » يقول

---

(١) تفسير الطبرى ٨٣/١ وانظر رأى ابن عباس وكذلك فى تفسير ابن كثير ٤٤/١ فقد قام عليه رأى الطبرىّ .

أبو حيّان[١] : « ولمّا اختلف الخبران ..... أتى بحرف العطف فى المبتدأ . ولو كان الخبر الثّانى فى معنى الأوّل لم يدخل العاطف ، لأنّ الشّىء لا يعطف على نفسه . ألا ترى قوله تعالى[٢] : أولئك هم الغافلون . بعد قوله : أولئك كالأنعام ، كيف جاء بغير عاطف لاتّفاق الخبرين اللّذين للمبتدأين فى المعنى » ثمّ إنّ اسم الإشارة « أولئك » بمعناه الّذى عرفنا يتكرّر مجيئه : « وفى تكرير أولئك تنبيهٌ على أنّهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهى ثابتةٌ لهم بالفلاح . فجعلت كلّ واحدةٍ من الأثرتين فى تميّزهم بها عن غيرهم بالمثابة الّتى لو انفردت كفت مميّزةً على حيالها[٣] ويردف اسم الإشارة باسم الضمير المنفصل « هم » الّذى يفيد هنا التّوكيد ، لأنّ السّياق يستقيم معناه بدونه . والمعنى أنّ أولئك المتّقين كما نسنّى لهم الاستعلاء على الهدى والتّمكّن منه فضلاً من الله تعالى عليهم ، تسنّى لهم الموقف ذاته من الفلاح فى الآخرة ثمرةً للاهتداء فى الأولى . فما معنى الفلاح فى العُرْف ؟ معناه الظّفر بالمطلوب والنّجاة من المرهوب[٤] وكيف تحقّق هذا المعنى العُرْفى ؟ بسبب معانى الصّعوبة والمشقّة المرتبطة بالمعنى اللّغوىّ للّفظ . الفلح أصله فى اللّغة الشقّ والقطع ، قال الشّاعر :

إنّ الحديد بالحديد يُفْلَحُ

أى يشقّ . ومنه فلاحة الأرضين ، إنّما هو شقّها للحرث قاله أبو عبيد ، ولذلك سمّى الأكّار فلاّحا . ويقال للّذى شقّت شفته السُّفلى أفلح . وهو بيّن الفلحة . فكأنّ المُفْلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه[٥] فمعنى وأولئك هم المفلحون أى الفائزون بالجنّة والباقون فيها[٦] والمفلح الفائز بالبغية ، كأنّه الّذى انفتحت له وجوه الظّفر ، ولم تستغلق عليه[٧] « ومعنى التّعريف فى : المفلحون ، الدّلالة على أنّ المتقين هم النّاس الّذين عنهم بلغك أنّهم يفلحون فى الآخرة . كما إذا بلغك أنّ إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل : زيدٌ التّائب . أى هو الّذى أخبرت بتوبته . أو على

---

(١) البحر المحيط ١/٤٣
(٢) سورة الأعراف ١٧٩
(٣) الكشّاف ١/١١١
(٤) تفسير القرطبى ص ١٥٩
(٥) تفسير القرطبى ص ١٥٨
(٦) تفسير القرطبى ص ١٥٩
(٧) الكشّاف ١/١١٤

أنّهم الّذين إن حُصّلت صفة المفلحين وتُحِقّقُوا ما هم ، وتُصُوِّروا بصورتهم الحقيقيَّة فهم هم »[١] ويقول أبو حيّان[٢] بشأن اسم الضّمير هم : « وإدخال هم فى مثل هذا التّركيب أحسن . لأنّه محلّ تأكيد ورفع توهّم من يتشكّك فى المسند إليه الخبر ، أو ينازع فيه ، أو من يتوهّم التّشريك فيه . ألا ترى إلى قوله تعالى[٣] : ﴿ وأنّه هو أضحك وأبكى . وأنّه هو أمات وأحيا . وأنّه هو أغنى وأقنى ﴾ . وقوله : ﴿ وأنّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى . وأنّه أهلك عاداً الأولى ﴾ ، كيف أثبت هو دلالة على ما ذكر و لم يأت به فى نسبة خلق الزّوجين وإهلاك عاد ، إذ لا يتوهّم إسناد ذلك لغير الله تعالى ولا الشّركة فيه . وأمّا الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والإغناء والإقناء فقد يدّعى ذلك أو الشّركة فيه متواقِحٌ كنُمروذ . وأمّا قوله تعالى : وأنّه هو ربّ الشّعرى ، فدخول هو للإعلام بأنّ الله هو ربّ هذا النجم ، وإن كان ربّ كلّ شىء ، لأنّ هذا النّجم عبد من دون الله ، واتّخذ إلـٰها . فأتى بهو لينبّه بأنّ الله مستبدٌّ بكونه ربّاً لهذا المعبود ومن دونه لا يشاركه فى ذلك أحد » .

ويقول الطّبرىّ فى تأويل الجزئيّة الكريمة[٤] : « وتأويل قوله : وأولئك هم المفلحون ، أى أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثّواب والخلود فى الجنان والنّجاة ممّا أعدّ الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب » . ويقول ابن كثير[٥] : أى الّذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شرّ ما منه هربوا .

بعد هذه الجولة الواسعة فى الدّراسة المتأمّلة للآيات الخمس الّتى تتحدّث عن الكتاب المعجز الهدى للمتّقين ، نستطيع أن نلقى على الآيات الكريمات مجتمعة نظرةً شاملة . ويمكن أن يتمّ ذلك فى هيئة نقاط .

---

(١) الكشاف ١/١١٢ وانظر البحر المحيط ١/٤٤

(٢) البحر المحيط ١/٤٤

(٣) الآيات من سورة النّجم وهى على التّوالى .

(٤) تفسير الطبرى ١/٨٣ (٥) تفسير ابن كثير ١/٤٤

أوّلا : بعد افتتاح السّورة الكريمة بثلاثة حروف « ا لم » من أهمّ ما يصحّ أن يفهم منها أنّ الكتاب العزيز مؤلّف من كلمات هى من جنس حروف فواتح السّور ، ولحروف فواتح السّور خصائص كثيرة كما تبيّنّا ، تمّ التّحوّل إلى الكتاب العزيز المعجز بمعناه وبمبناه ، بمضمونه وبشكله .

ثانياً : حديث الآية الثّانية عن الكتاب العزيز ذو ثلاثة جوانب ﴿ ذلك الكتاب . لا ريب فيه . هدى للمتّقين ﴾ وحديث الآيتين الكريمتين عن المتّقين يسير على غرار ذلك ، فكلٌّ من الآيتين الكريمتين ذات ثلاثة جوانب ﴿ الّذين يؤمنون بالغيب . ويقيمون الصّلاة . وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ ، ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك . وما أُنزل من قبلك . وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . أمّا حديث الآية الكريمة الخامسة والأخيرة فذو شقّين يتحدّث أوّلهما عن الحياة الأولى ويتحدّث آخرهما عن الحياة الآخرة ﴿ أولئك على هدىً من ربّهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

ثالثاً : حديث الآية الكريمة الثانية ذو الجوانب الثّلاثة عن الكتاب العزيز يتناول إعجاز هذا الكتاب العزيز « ذلك الكتاب » ، ذلك الإعجاز الّذى فُهِم ضِمْناً فى الآية الكريمة الأولى « ا لم » ويتناول طبيعة هذا الكتاب العزيز وصفته « لا ريب فيه » ويتناول الوظيفة الرّئيسيّة لهذا الكتاب العزيز وهى الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أقوم . مع تعيين الفئة الّتى تستفيد من هذا الكتاب العزيز وتنتفع بهديه وهى فئة المتقين « هـدًى للمتّقين » .

رابعاً : بعد أن يتمّ الحديث عن هذا الكتاب العزيز وحده فى الآية الكريمة الثّانية ، يتمّ الحديث مرّةً ثانية عن هذا الكتاب العزيز وعن الكتب السّماوية السّابقة . وهذا الحديث للمرّة الثّانية من زاويةٍ أخرى حيث يبيّن فى الآية الكريمة الرّابعة أنّ هذا الكتاب العزيز موحًى به من ربّ العالمين إلى هذا الرّسول الكريم . وبهذا ينفرد هذا الكتاب العزيز بالحديث عنه أكثر من مرّة من بين سائر الكتب السّماويّة السّابقة . وفى هذا تعميقٌ لمنزلة هذا الكتاب العزيز السّامية الرّفيعة وتأكيد .

خامساً : إذا كنّا تبيّنّا أنّ فى العودة إلى الحديث عن الكتاب العزيز مرّة أخرى ، دليلاً على سموّ المكانة ورفيع الأهمّيّة ، فإنّا نستطيع أن نقول الشّىء ذاته عن الهداية وعن الإيمان

بالغـيب .

أمّا الهداية فقد نصّ فى الآية الكريمة الثّانية على أنّ هذا الكتاب العزيز هدًى للمتّقين . وقد عرفنا أنّ المراد بالهدى هنا هدى الاستدلال والإرشاد . إنّ هذه هى طبيعة هدى القرآن الكريم ، أن يهتدى بنوره المتّقون . وفى ذلك إيحاءٌ بأنّ الكافرين الصمّ البكم العمى ، عليهم هذا الكتاب العزيز عمى . وقد جاء فى سورة فصّلت[1] قوله تعالى : ﴿ قل هو للّذين آمنوا هدًى وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى . أولئك ينادَوْن من مكانٍ بعيد ﴾ . ثمّ يعود إلى الهداية مرّة أخرى وذلك فى الآية الكريمة الخامسة . ويكون من زاوية أخرى على غرار الحديث السّابق عن الكتاب العزيز فى المرّة الأخرى . فإذا كانت الهداية فى المرّة الأولى بمعنى التّوجيه والإرشاد ، وهذا النّوع من الهداية يستطيعه بفضل الله تعالى رسلُ الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وما أوحى الله تعالى إليهم به من كتب سماويّة وأتباع هؤلاء الرّسل ، فإنّ الهداية فى المرّة الآخرة بمعنى التّوفيق والتّسديد ، وهو ما لا يقدر عليه إلاّ الله تعالى : ﴿ أولئك على هدًى من ربّهم ﴾ .

وأما الغيب فقد نصّ فى الآية الكريمة الثّالثة ابتداءً على أنّ أولى نعوت المتّقين الإيمان بالغيب . وفى هذا الابتداء إشعارٌ بأهميّة الإيمان بالغيب . ويدخل فى الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر بطبيعة الحال . ومع ذلك فإنّا نتبيّن أنّ الآية الكريمة الرّابعة الّتى يختم بها الحديث عن نعوت الّمتّقين ، تنتهى بالحديث عن إيمان بل إيقان المتّقين باليوم الآخر . وبهذا يتبيّن أنّ نعوت الّمتّقين تبدأ وتنتهى بالإيمان بالغيب ، تبدأ بالإيمان بالغيب المطلق ، وتنتهى بأهمّ مظاهر الإيمان بالغيب ألا وهو الإيمان باليوم الآخر ، تبدأ بالإيمان بالغيب المطلق وتنتهى بأهم عناصر الإيمان بالغيب ألا وهو اليوم الآخر . ودليلاً على أهميّة الإيمان باليوم الآخر من بين عناصر الإيمان بالغيب ، لا يكتفى السّياق بالعودة إلى الحديث عن الغيب من هذه الزّاوية ، بل يتجاوز ذلك إلى تجاوز مرحلة الإيمان إلى مرحلة الإيقان . جاء فى المرّة الأولى القول : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ وجاء فى المرّة الآخـرة

---

(١) الآية ٤٤

القول : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

سادساً : حيث إنّ الحديث عن الإيمان بالغيب مِنْ بين نعوت المتّقين هو الّذى تكرّر وحده رغم دخول أهمّ عناصره وهو الإيمان باليوم الآخر فى الحديث عن الغيب أوّلا ، فإنّ فى الإمكان أن نستفيد من هذا الانفراد فى تكرار الحديث عن الغيب بشأن الحديث المنفرد عن الصّلاة وعن الإنفاق وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ فبما أنّ أهمّ عناصر الإيمان بالغيب أعنى الإيمان باليوم الآخر داخلٌ بقوّة فى أثناء الإيمان بالغيب ، فإنّ أهمّ أنواع الصّلاة ، وهى الصلوات الخمس المفروضة داخلةٌ أساساً فى الحديث عن إقامة الصّلاة ويلحق بها الأنواع الأخرى من الصّلوات ، وإنّ أهمّ وجوه الإنفاق ، وهى الزكاة المفروضة ، داخلةٌ أساساً فى الحديث عن مطلق الإنفاق مما رزق الله تعالى المتّقين . وقد جاء عن الكافرين فى سورة فصّلت[1] قوله تعالى : ﴿ وويلٌ للمشركين . الّذين لا يؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ .

وإنّما انفرد الإيمان بالغيب بتكرير الحديث عنه رغم أهميّة الصّلاة وكونها عماد الدّين وأهميّة الزّكاة الّتى اقترنت فى القرآن الكريم بالصّلاة فيما يزيد على الثّمانين موضعاً لأنّ ما بين الحديث عن الغيبين خادمٌ لهما موصلٌ إليهما .

سابعاً : يبدو الالتحام جليًّا بين الحياتين الأولى والآخرة فى يقين المتّقين ، إنّهم فى هذه الحياة الأولى يستعدّون للحياة الآخرة . إنّ فى هذه الحياة الأولى حرثًا وزرعاً ، وفى الحياة الآخرة حصاداً وثمرا . إنّ فى هذه الحياة الأولى عملاً وإنّ فى الحياة الآخرة جزاءً . وإنّ ممّا خصّ الله تعالى به من آمن وعمل صالحاً الحياةَ الطيّبَة فى الأولى والآخرة . قال تعالى[2] : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ نسأل الله تعالى أن يكرمنا بالحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة . آمين .

---

(١) سورة فصّلت ٦ ، ٧

(٢) سورة النّحل ٩٧

[٢]

الّـذين كفـروا

الآيـة (٦ ، ٧)

تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات عن المؤمنين من زاوية أرفع درجات الإيمان وهى درجة التّقوى ، الّتى يصحّ أن تعتبر الوجه الثّانى للإحسان بالمعنى الّذى بيّنه حديث جبريل عليه السّلام ، بأن تعبد الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، وإنّما كان الحديث عن المؤمنين من هذه الزّاوية بقصد حثّ المؤمنين على أن يستبقوا الخيرات . ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن الّذين كفروا ، وهم الّذين يقابلون المؤمنين المتّقين فى الصّفات ، والمعروف أنّ المعانى تتداعى بالتّضاد ، وأنّ من وسائل التّرابط بين المعانى تقابلها فى الصّفات . فالنّهار يقذف إلى الأذهان باللّيل ، والخير بالشّر ، والشّكران بالجحود والكفران ، والإيمان بالكفر وهكذا . وإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين من نصيب الّذين كفروا . قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذابٌ عظيم ﴾ فمع أولى الآيتين الكريمتين .

الآيــة رقــم (٦)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

الكفر ضدّ الإيمان . وهو المراد فى الآية . وقد يكون بمعنى جحود النّعمة والإحسان . ومنه قوله عليه السّلام فى النّساء فى حديث الكسوف : ورأيت النّار فلم أر منظراً كاليوم قطّ أفظع . ورأيت أكثر أهلها النّساء . قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : بكفرهنّ ؟ قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان . لو أحسنت إلى إحداهنّ الدّهْرَ كُلَّه ثمّ رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيرًا

قطّ . أخرجه البخارىّ وغيره . وأصل الكفر فى كلام العرب السّتر والتّغطية ..... والكافر الزّارع والجمع كفّار . قال الله تعالى : كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباته . يعنى الزّرّاع لأنهم يغطّون الحبّ[١] ولذلك سمّوا اللّيل كافراً لتغطية ظلمته ما لبسته ..... قال لبيد بن ربيعة :

فى ليلةٍ كفر النّجومَ غمامُها[٢]

سواءٌ عليهم معناه معتدلٌ عندهم[٣] مأخوذٌ من التساوى كقولك : متساوٍ هذان الأمران عندى ، وهما عندى سواء ، أى هما متعادلان عندى . ومنه قول الله جلّ ثناؤه : فانبذ إليهم على سواء . يعنى أعلمهم وآذنهم بالحرب حتّى يستوى علمك وعلمهم بما عليه كلٌّ فريقٍ منهم للفريق الآخر . فكذلك قوله : سواء عليهم ، معتدل عندهم أىّ الأمرين كان منك إليهم ، الإنذار أم ترك الإنذار لأنّهم كانوا لا يؤمنون وقد ختمتُ على قلوبهم وسمعهم[٤] وقال محمّد بن يزيد (المبرّد) سواء رفع بالابتداء[٥] ويرى الزّمخشرىّ أنّه خبرٌ لإنّ[٦] وسواءٌ اسم بمعنى الاستواء ، ووصف به كما يوصف بالمصادر . ومنه قوله تعالى : ﴿ تعالوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ﴾ ﴿ فى أربعة أيّام سواءً للسّائلين ﴾ بمعنى مستوية[٧] ولإجرائه مجرى المصدر لا يُثنّى قالوا : هما سواء . استغنوا بتثنية سِىّ بمعنى سواء كقِىّ[٨] بمعنى قواء . وقالوا : هما سيّان[٩] .

أأنذرتهم : جىء بالاستفهام من أجل التّسوية . ومثله قوله تعالى : ﴿ سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾[١٠] والهمزة وأم مجرّدتان لمعنى الاستواء . وقد انسلخ

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٥٩ وانظر البحر المحيط ٤٤/١ وتفسير ابن كثير ٤٥/١ وتفسير الطّبرى ٨٥/١

(٢) تفسير الطّبرى ٨٥/١ (٣) تفسير القرطبى ص ١٦٠

(٤) تفسير الطبرى ٨٦/١ (٥) تفسير القرطبى ص ١٦٠

(٦) الكشّاف ١١٦/١ (٧) الكشّاف ١١٦/١

(٨) جاء فى القاموس : « والقِىّ بالكسر قفر الارض كالقِواء بالكسر والمدّ والقَواية وأقْوى نزل فيها والدّار خَلَت كقَوِيَتْ ».

(٩) البحر المحيط ٤٤/١ (١٠) تفسير القرطبى ص ١٦٠

عنهما معنى الاستفهام رأساً[١] والإنذار الإبلاغ والإعلام . ولا يكاد يكون إلاّ فى تخويف يسع زمانه الاحتراز ، فإن لم يتّسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً و لم يكن إنذاراً . قال الشّاعر :

أنذرت عمراً وهو فى مهل قبل الصّباح فقد عصى عمرو

وتناذر بنو فلان هذا الأمر إذا خوّفه بعضهم بعضا[٢] والإنذار هنا بمعنى التّخويف من عقاب الله بالزّجر عن المعاصى[٣] والمفعول الثّانى لأنذر محذوف لدلالة المعنى عليه التّقدير : أأنذرتهم العذاب على كفرهم أم لم تنذرهموه[٤] .

وإذا كانت الهمزة من أأنذرتهم وأم من أم لم تنذرهم مجرّدتين لمعنى الاستواء كما يقول الزّمخشرىّ . فما المراد بالاستواء ؟ يقول الزّمخشرىّ[٥] « ومعنى الاستواء استواؤهما فى علم المستفهم عنهما لأنّه قد علم أن أحد الأمرين كائن ، إمّا الإنذار وإمّا عدمه ولكن لا بعينه » ويقول الطّبرى[٦] فى هذا الشّأن « وأمّا قوله : أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . فإنّه ظهر به الكلام ظهور الاستفهام وهو خبر لأنّه وقع موقع أىّ ، كما تقول : لا نبالى أقمت أم قعدت وأنت مخبرٌ لا مستفهم لوقوع ذلك موقع أىّ . وذلك أنّ معناه إذا قلت ذلك ما نبالى أىّ هذين كان منك . فكذلك ذلك فى قوله : سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لمّا كان معنى الكلام : سواء عليهم أىّ هذين كان منك إليهم حسن فى موضعه مع سواء أفعلت أم لم تفعل » .

إنّ الحديث فى هذه الآية الكريمة إذا كان عن الّذين كفروا ، فإنّه يبدو أنّه عن جنس هذا الفريق من النّاس وهم الّذين صمّموا على الكفر والمضىّ فى العناد إلى آخر المضمار . وفى الإمكان أن ننظر إلى الآية الكريمة من عدّة جوانب .

أوّلاً : يلاحظ أن الآية الكريمة تتحدّث عن استواء الإنذار وعدمه فى حقّ المصرّين على الكفر . وحينما نبحث عن كيفيّة تحقّق هذا الإنذار فإنّا نتبيّن أنه إنما يتمّ عن طريق المصطفى ﷺ الّذى أنزل الله تعالى عليه خاتم الكتب السّماويّة وأشرفها . وعليه

---

(١) الكشّاف ١/١١٧
(٢) تفسير القرطبى ص ١٦٠
(٣) الكشّاف ١/١١٩
(٤) البحر المحيط ١/٤٨
(٥) الكشّاف ١/١١٧
(٦) تفسير الطّبرى ١/٨٦

يكون القرآن الكريم وسيلة الرّسول الكريم الكبرى فى الإنذار . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تتضمّن الإشارة إلى القرآن الكريم من زاوية كونه نذيرا . جـاء فى سورة فصّلت[1] قوله تعالى : ﴿ حم . تنزيلٌ من الرّحمن الرّحيم . كتابٌ فصّلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ وسبق أن جاء الحديث فى صدر السّورة الكريمة عن القرآن الكريم من زاويتين . الزّاوية الأولى الإشارة إليه بكونه ذلك الكتاب المعجز . ومعروفٌ أنّ لفظة الكتاب تنبّه إلى صفة هذا الكتاب العزيز من زاوية كونه مكتوباً ، وللعين حظّها من المكتوب المقروء . والزّاوية الثانية التّنبيه إلى مصدر الكتاب العزيز الموحى به من ربّ العالمين . ومعروفٌ أنّ المصطفى ﷺ إنّما تلقّى القرآن الكريم من لدن الحكيم العليم بواسطة جبريل عليه السّلام عن طريق المشافهة . وللأذن حظّها من المنطوق المسموع . وها نحن أولاء أمام الإشارة الثّالثة إلى القرآن الكريم من زاوية كونه نذيرا . ويكون الإنذار بالقرآن الكريم عن طريق السّماع وعن طريق القراءة . وبما أنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى وسيلته فى المقام الأوّل النّطق ، فمعنى هذا أنّ الدّور الأكبر هنا للسّمع وللأذن ، ولا ينفى ذلك أنّ للعين وللكتابة دورهما ، ولكنّه دورٌ محدود .

ثانياً : حينما نتبيّن أنّ حديث الآية الكريمة عن القرآن الكريم وعن الرّسول العظيم من زاوية الإنذار للكافرين فى المقام الأوّل ، فإنّ هذه الصّفة الّتى جاءت فى سياق الحديث عن الكافرين ، تقذف إلى أذهاننا بالصّفة المقابلة الّتى جاءت فى سياق الحديث عن المتّقين . إنّ الصّفة هنا فى حقّ المتّقين هى الصّفة المقابلة فى حقّ الكافرين . فإذا كان الإنذار من سمات كلٍّ من الرّسول الكريم والقرآن العظيم تجاه الكافرين . فإنّ التّبشير فى المقابل من سمات كلٍّ من الرّسول الكريم والقرآن العظيم تجاه المؤمنين .

ثالثاً : إنّ صفة الإنذار جاءت صراحةً فى حقّ الكافرين ، وإنّ متعلّق التّبشير أو ثمرته وهو الهدى جاء فى حقّ المتّقين . وإنّا لنتبيّن فى كلٍّ من الموطِنَيْن تثبيتاً لفؤاد المصطفى ﷺ إيجاباً وسلبا . إنّ تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ يكون بالإيجاب حينما ينوّه بالكتاب

---

(١) الايات ١ ــ ٤

العزيز ، وبكونه هدًى للمّتقين ، وحينما يُنَوّه بنعوت المتّقين وثمرة تلك النّعوت وهى كونهم على هدًى من ربّهم جلّ وعلا . وإنّ تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ يتمّ بعد ذلك عن طريق إفهامه ﷺ بطريقة غير مباشرة بأنّ عليه ألاّ يقتل نفسه حزنا لانصراف قومه ﷺ عنه وهو الّذى يدعوهم إلى صراط العزيز الحميد . إنّ عليه ﷺ ألاّ تذهب نفسه على قومه المصّرين على الكفر حسرات ، وألاّ يهلك نفسه حزناً لعدم قبولهم دعوةَ الحقّ وانضمامهم إلى زمرة المؤمنين المتّقين .

وهكذا يتبيّن أنّ تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ تمّ بطريقة الإيجاب مرّةً وذلك مفهوم ضمناً بسبب النصّ على طريق الاهتداء إلى الإيمان والإيقان والتّقوى وعلى ثمرة كلّ ذلك . كما تمّ بطريق النّفى مرّة أخرى . وذلك مفهومٌ ضمناً كذلك بسبب تقرير الثّمرة الأكيدة لإنذار الكافرين المصرّين على الكفر .

رابعاً : من الواضح أنّ تثبيت الفؤاد بالنّصّ على ثمرة التّبشير أوّلاً ، مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى بهذا الرّسول الكريم ، الّذى أنزل الله تعالى عليه بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، سورة البقرة ، ضمن ما أنزل جلّ وعلا عليه من قرآن كريم . والمعروف أنّ الجماعة المؤمنة القويّة بل الدّولة إنّما وُلِدَت فى المدينة المنوّرة . وإنّ الثّمرة اليانعة للتّبشير المتمثّلة فى المتّقين ونعوتهم ، هى الّتى تبدأ بها سورة البقرة وفى ذلك تنويهٌ بشأن المؤمنين المتّقين إضافةً إلى تثبيت المصطفى ﷺ .

خامساً : لقد نصّت الآية الكريمة على أنّ الإنذار ، بمعنى الإعلام مع تخويف[1] وهو أولى مراحل الدّعوة بالنسبة لكلٍّ من المؤمنين والكافرين ، وقد قال تعالى[2] : ﴿ أو لم يتفكّروا ، ما بصاحبهم من جنّة ، إنْ هو إلاّ نذيرٌ مبين ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرّاً إلاّ ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّنى السّوء . إن أنا إلاّ نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يوقنون ﴾ إنّ الإنذار وهو أولى مراحل الدّعوة غير مفيدٍ فى حقّ الّذين كفروا وأصرّوا على الكفر عناداً واستكبارا . وإذا

---

(١) الجلالين (٢) سورة الأعراف ١٨٤

(٣) سورة الأعراف ١٨٨

كان مثل هذا المفهوم مثبّتاً لفؤاد المصطفى ﷺ وتسليته والتّسرية عنه ، فالمطلوب منه عليه الصّلاة والسلام البلاغ فقط وقد قال عزّ من قائل خطاباً له ﷺ(١) ﴿ فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ فإنّ فى هذا المفهوم كذلك إشعاراً بتكثير الأجر بمعاناة من لا قبول له للإيمان ومقاساته(٢) ونحن وراء ذلك بحاجةٍ إلى تبيين بعض الملابسات المتعلّقة بعدم إيمان الكافرين واستحقاقهم العذاب الّذى أعدّ الله تعالى لهم يوم القيامة .

لقد تحققت لهؤلاء المصرّين على الكفر كلّ الأسباب الّتى تكفل لهم الهداية والدّخول بعون الله تعالى وفضله الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض ، والّتى أعدّت للمتّقين ، والّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومع ذلك هم لم يستفيدوا من كلّ هذه النّعم وأصرّوا على الشّقاء والعياذ بالله .

إنّ هؤلاء المصرّين على الكفر تتحقّق فيهم أساساً الفطرة الّتى فطر الله تعالى النّاس عليها ، بأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وقد قال تعالى(٣) : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله الّتى فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيمّ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وإذا كان المؤمنون المتّقون لم ينحرفوا بهذه الفطرة عن خطّ سيرها الطبيعى ، و لم يعرّضوها لما يفسدها وهى المرهفة بطبعها الشّديدة الحساسية القابلة للتّأثّر السّريع ، فإنّ الكافرين عملوا بعكس ذلك كلّه ، ومن ثمّ فهم المسئولون عن انحراف فطرتهم عن سواء السّبيل .

ثمّ إنّ ربّ العزّة لم يسلب هؤلاء المصرّين على الكفر شيئاً من النّعم الّتى يستطيعون عن طريقها بعون الله تعالى كما استطاع المؤمنون ، لو أنهم أحسنوا الانتفاع بها كما أحسن المؤمنون ، أن يصلوا إلى ما انتهى إليه المؤمنون المتّقون المهتدون الّذين زادهم الله تعالى هدًى وآتاهم تقواهم . وإنّ من أكبر النّعم النّافعة فى هذه الحال نعمة العقل والقدرة على التّمييز بين طريق الخير الّذى أرشد الله تعالى العباد إليه وحثّهم على السّير فيه وبين طريق الشّرّ الّذى نبّه عزّ وجلّ العباد عليه وحذّرهم منه . وقد قال تعالى فى تكريم جنس

---

(١) سورة الرّعد ٤٠

(٢) البحر المحيط ٤٨/١

(٣) سورة الرّوم ٣٠